سلسلة رياض الإيمان

نفحات من سيرة الرسول وصحبه

فاتح إفريقية

وشخصيات أخرى

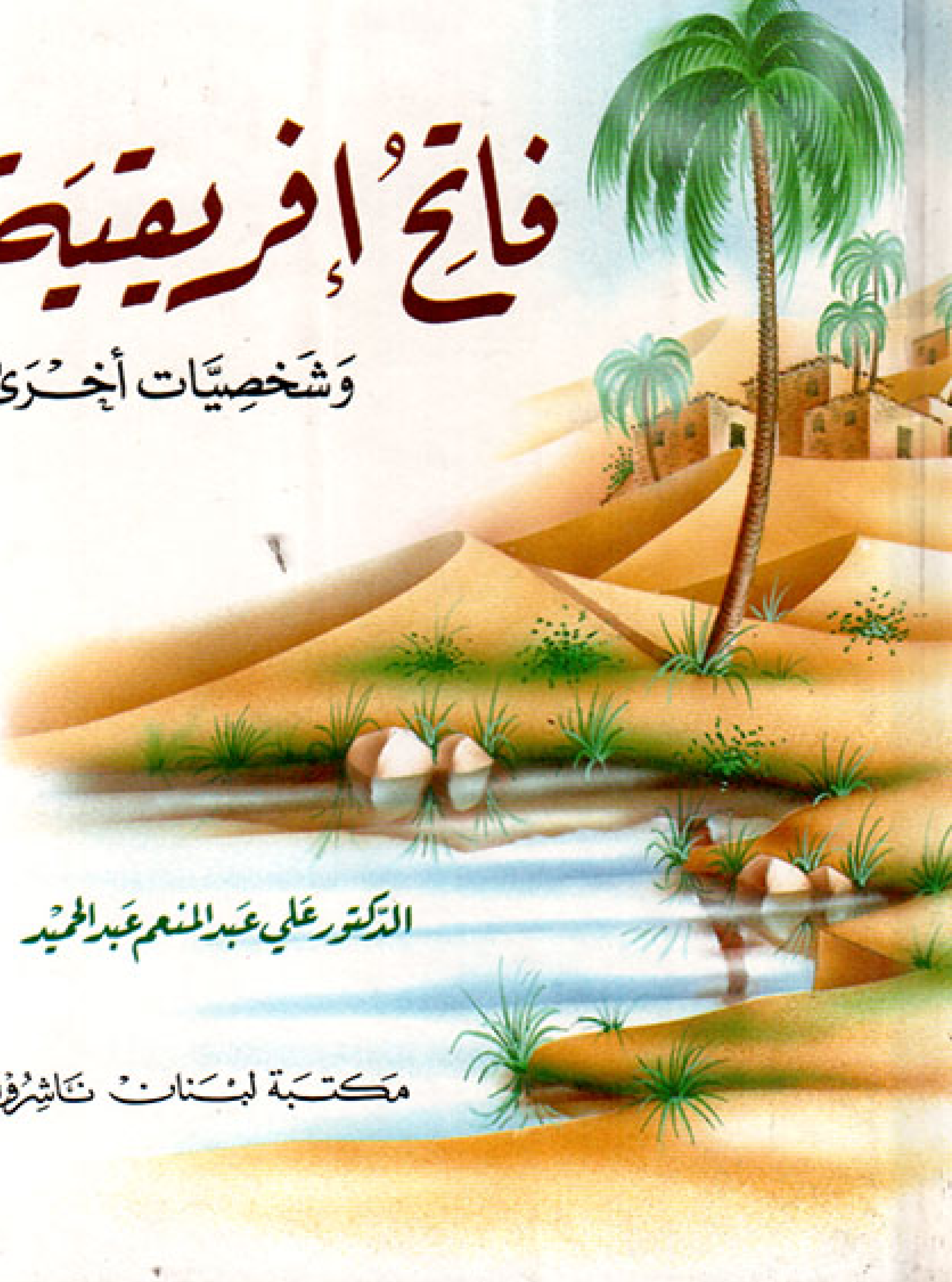

الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

مكتبة لبنان ناشرون

فاتح إفريقية

وشخصيّات أخرى

بسم الله الرحمن الرحيم ۝ محمد رسول الله
والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا
يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود
ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه
فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم
الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم
مغفرة وأجرا عظيما ﴿٢٩﴾

إشراف : الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

© الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان ، ١٩٩٩

١٠ (أ) شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

يطلب من : شركة أبو الهول للنشر
٣ شارع شواربي بالقاهرة ت : ٣٩٣٥٦٠٨ ، ٣٩٢٠٦١٦
١٢٧ طريق الحرية (فؤاد سابقا) - الشلالات ، الإسكندرية ت : ٤٩٢٤٨٣٩

جميع الحقوق محفوظة : لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب ، أو تخزينه أو تسجيله بأية وسيلة ، أو تصويره دون موافقة خطية من الناشر .

الطبعة الأولى ١٩٩٩

رقم الإيداع ١٩٩٩/٩٥٨٤

الترقيم الدولي ٣ - ٠٤١٦ - ١٦ - ٩٧٧ ISBN

طبع في دار نوبار للطباعة ، القاهرة

رياض الإيمان

نفحات من سيرة الرسول وصحبه

فاتح إفريقية
وشخصيّات أخرى

الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

أمُّ الْمُؤْمنينَ
سَوْدَةُ بنْتُ زَمْعَة

أَلْقَتِ الْوَحْشَةُ الْمُمِضَّةُ ظِلالَها عَلى بَيْتِ الرَّسولِ ﷺ بَعْدَ مَوْتِ زَوْجَتِهِ الطّاهِرَةِ خَديجَة بِنْتِ خُوَيْلد ، وكانَ يَنْظُرُ إلى ابْنَتَيْهِ : أمّ كُلْثوم وفاطِمَة وَما يَرْتَسِمُ عَلى وَجْهَيْهِما مِنْ وُجوم فَيَزْدادُ هَمّا وأَلَمًا ، وَيَرى ما يُنْزِلُهُ السُّفَهاءُ مِنْ قَوْمِهِ بِأَصْحابِهِ مِنْ تَعْذيب وَتَنْكيلٍ فَيَذوبُ أَسًى وَهَمّا ، وَيَتَحَمَّلُ ما يَرْتَكِبُهُ هَؤُلاءِ السُّفَهاءُ مَعَهُ في صَبْرٍ وَيَقينٍ بِنَصْرِ اللهِ .

وَكانَ بَعْضُ الْمُسْلِمينَ الَّذينَ هاجَروا إلى الْحَبَشَةِ قَدْ أَرْهَقَهُمُ الْحَنينُ إلى وَطَنِهِمْ ، فَلَمّا بَلَغَ مَسامِعَهُمْ أَنَّ الإِسْلامَ قَدْ فَتَحَ قُلوبًا كانَتْ غُلْفًا (لا تَعي الرُّشْدَ) ،

وَرَفَعَ الغِشاوَةَ عَنْ عُيونٍ كانَتْ عُمْيًا ، وَأنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطّابِ قَدِ اعْتَزَّ بِهِ الإِسْلامُ كَما اعْتَزَّ بِحَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبَ - حينَئِذٍ آثَروا العَوْدَةَ إلى وَطَنِهِمْ مَكَّةَ ، وَفي صُدورِهِمْ حَنينٌ إِلَيْها طاغٍ ، وَفي قُلوبِهِمْ لَهْفَةٌ إِلَيْها عارِمَةٌ ، وَلَكِنَّهُمْ ما كادوا يَبْلُغونَ مَشارِفَها حَتّى انْطَفَأَتْ جَذْوَةُ الأَمَلِ في قُلوبِهِمْ ، وَأَدْرَكوا أَنَّ كَيْدَ الكُفّارِ قَدْ زادَ ، وَأَنَّ إِيذاءَهُمْ لِلْمُسْلِمينَ قَدِ اشْتَدَّ .

وَمِنْ بَيْنِ هَؤُلاءِ العائِدينَ والعائِداتِ كانَتْ « سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ » وَزَوْجُها « السَّكرانُ بْنُ عَمْرو » ابْنُ عَمِّها ، وَلَكِنَّهُ عادَ عَليلاً مَكْدودًا ، وما لَبِثَ أَنِ اشْتَدَّتْ بِهِ العِلَّةُ ، فَقَضى نَحْبَهُ ، وَانْتَقَلَ إِلى جِوارِ رَبِّهِ ، وَحَزِنَتْ عَلَيْهِ « سَوْدَةُ » حُزْنًا شَديدًا ، وَبَكَتْهُ بُكاءً حارًّا . . وَما كانَ يُخَفِّفُ لَوْعَةَ حُزْنِها حينًا إلا تَذَكُّرُها لِرُؤْيا رَأَتْها ذاتَ لَيْلَةٍ ، وَقَصَّتْها عَلى زَوْجِها « السَّكران » فَأَوَّلَها تَأويلاً حَسَنًا .

لَقَدْ رَأَتْ ذاتَ لَيْلَةٍ كَأَنَّ الرَّسولَ ﷺ قَدْ وَطِئَ عَلى عُنُقِها ، فَلَمّا أَخْبَرَتْ زَوْجَها بِما رَأَتْ قالَ لَها : « لَئِنْ

صَدَقَتْ رُؤْياكِ فَإِنَّني سَأَموتُ ، وَسَيَتَزَوَّجُكِ الرَّسولُ ﷺ مِنْ بَعْدي . » ثُمَّ رَأَتْ في لَيْلَةٍ أُخْرى كَأَنَّ قَمَرًا انْقَضَّ عَلَيْها مِنَ السَّماءِ !

كانَتْ تَبْكي زَوْجَها « السَّكْران » ، وَتَجْهَشُ في البُكاءِ، ثُمَّ تَتَذَكَّرُ رُؤْياها وَتَفْسيرَ زَوْجِها لَها ، فَيُداعِبُ نَفْسَها الأَمَلُ ، وَيَمْلأُ صَدْرَها الشَّوْقُ إِلى تَحْقيقِهِ ، ثُمَّ تَثوبُ إِلى رُشْدِها ، أَوْ يَثوبُ رُشْدُها إِلَيْها ، فَتَقولُ في نَفْسِها لِنَفْسِها :

« وَهَلْ تَصْدُقُ رُؤْيايَ ؟ وَمَنْ أَنا حَتّى تَصْدُقَ رُؤْيايَ؟ وَهَلْ ضاقَ الأَمْرُ عَلى الرَّسولِ ﷺ حَتّى لَمْ يَجِدْ سِوايَ بَعْدَ خَديجَةَ ؟ مَنْ أَنا حَتّى يُبْدِلَني اللهُ بِخَديجَةَ في بَيْتِ الرَّسولِ الحَبيبِ ؟ لا ، لَقَدْ كانَتْ أَضْغاثَ أَحْلامٍ ، وَما يَليقُ بي أَنْ أَتَشَبَّثَ بِهَذِهِ الأَضْغاثِ ! إِنَّهُ يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أُفَوِّضَ أَمْري لِرَبّي ، وَأَنْ أَسْأَلَهُ العَوْنَ وَالصَّبْرَ عَلى قَضائِهِ ، وَأَنْ يُخْرِجَني مِنْ سُلْطانِ الكافِرينَ : أَبي وَأَخي ،

وَأَنْ يُلْحِقَني بِزَوْجي في الجَنَّةِ إنْ شاءَ ، هُوَ مَوْلايَ ، وَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصيرُ . »

بِمِثْلِ هَذِهِ الْكَلِماتِ كانَتْ « سَوْدَةُ » تُحَدِّثُ نَفْسَها وَتُناجيها . وَبَيْنَما هِيَ غارِقَةٌ في هَذا الْحَديثِ النَّفْسِيِّ ذاتَ يَوْمٍ دَخَلَتْ عَلَيْها « خَوْلَةُ بِنْتُ حَكيم » رَفيقَتُها في الهِجْرَةِ إلى الحَبَشَةِ ، وَصاحِبَتُها في العَوْدَةِ مِنْها مَعَ زَوْجِها « عُثْمانَ بْنِ مَظْعونٍ » ، دَخَلَتْ عَلَيْها مُبْتَهِجَةً مُتَهَلِّلَةً ، فَلَمّا أَبْصَرَتْها « سَوْدَة » طافَ بِها طائِفٌ مِنَ الأُنْسِ ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَتَلَبَّثَ طَويلاً ، ثُمَّ قالَتْ لَها :

« ما وَراءَكِ ، يا خَوْلَةُ ؟ أَراكِ مُبْتَهِجَةً مَسْرورَةً .. سَرَّكِ اللهُ دَوْمًا . »

قالَتْ خَوْلَةُ : «وَسَرَّكِ اللهُ أَيْضًا .. لَقَدْ أَدْخَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ الخَيْرَ والبَرَكَةَ . »

قالَتْ سَوْدَة : « و ما ذاكَ ، يا خَوْلَةُ ؟»

فَأَجابَتْ خَوْلَةُ : « إنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ أَرْسَلَني لأَخْطُبَكِ

إلَيْهِ . »

زَغْرَدَتِ الفَرْحَةُ في صَدْرِ « سَوْدَةَ » ، وَانْجَلَى عَنْهُ كُلُّ هَمٍّ وَحُزْنٍ ، وَقالَتْ : «وَدِدْتُ ذَلِكَ ، وَلَكِنِ ادْخُلي عَلى أَبي فَاذْكُري لَهُ ذَلِكَ . »

وَكانَ أبوها شَيْخًا طاعِنًا في السِّنِّ ، قَدْ كُفَّ بَصَرُهُ ، وَما زالَ عَلى كُفْرِهِ وَجاهِلِيَّتِهِ ، وَقَدْ تَخَلَّفَ عَنِ الحَجِّ مَعَ قَوْمِهِ لِشَيْخوخَتِهِ وَعَجْزِهِ ، فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ « خَوْلَة » ، وَحَيَّتْهُ بِتَحِيَّةِ أَهْلِ الجاهِلِيَّةِ ، فَقالَتْ : « أنْعِمْ صَباحًا . »

فَقالَ : « مَنْ أَنْتِ ؟»

قالَتْ : « خَوْلَةُ بِنْتُ حَكيم . »

فَرَحَّبَ بِها ، وَقالَ لَها كَلامًا طَيِّبًا .

وَانْتَظَرَتْ « خَوْلَةُ » رَيْثَما فَرَغَ الشَّيْخُ مِنْ تَرْحيبِهِ ، ثُمَّ قالَتْ لَهُ : « إنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِب يَذْكُرُ سَوْدَة بِنْتَ زَمْعَة . »

فَقالَ : « هُوَ كُفْءٌ كَريمٌ ؛ فَما تَقولُ صاحِبَتُكِ ؟»

قالَتْ خَوْلَةُ : « هِيَ تُحِبُّ ذلِكَ . »

قالَ الشَّيْخُ : « اِدْعيها إلَيَّ . »

فَلَمّا جاءَتْ قالَ لَها : « زَعَمَتْ هَذِهِ (يَعْني خَوْلَةَ) أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ يَخْطُبُكِ ، وَهُوَ كُفْءٌ كَريمٌ . . أَفَتُحِبّينَ أَنْ أُزَوِّجَكِ إيّاهُ ؟ »

فَلَمْ تَزِدْ عَلى أَنْ قالَتْ : « نَعَمْ ، يا أَبَتاهُ ! »

فَقالَ الشَّيْخُ لِخَوْلَة : « إذًا فَادْعيهِ لي . »

وَسَعى الرَّسولُ ﷺ إلى بَيْتِ « زَمْعَةَ » فَزَوَّجَهُ ابْنَتَهُ «سَوْدَةَ » .

وَلَمّا عادَ أَخوها « عَبْدُ اللهِ » مِنَ الحَجِّ - وَكانَ عَلى كُفْرِهِ وَجاهِلِيَّتِهِ - وَعَلِمَ بما صَنَعَهُ أَبوهُ - حَثا عَلى رَأْسِهِ التُّرابَ ، وَكانَ بَعْدَ أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بالإسْلام يَقولُ :

« إنّي لَسَفيهٌ يَوْمَ حَثَوْتُ التُّرابَ عَلى رَأْسي أَنْ تَزَوَّجَ رَسولُ اللهِ ﷺ سَوْدَةَ . وَأَرْجو اللهَ أَنْ يَغْفِرَ لي ! »

وَذاعَ الخَبَرُ في مَكَّةَ ، فَعَلَتِ الدَّهْشَةُ بَعْضَ الوُجوهِ ،

وَأصابَتِ الحَيْرَةُ البَعْضَ الآخَرَ ، فَما في سَوْدَة مَطْمَعٌ لِلرِّجالِ ، إنَّها أَرْمَلَةٌ مُسِنَّةٌ قَدْ أوْهَنَتْها مِحْنَةُ الاغْتِراب ، وَما إنْ راحَتْ تُفيقُ مِنْها حَتّى هَدَّتْها مِحْنَةُ التَّرَمُّلِ . وَما هِيَ الَّتي تَسْتَطيعُ أَنْ تَسُدَّ مَسَدَّ خَديجَةَ ، لا في بَيْتِ الرَّسولِ ، وَلا في قَلْبِهِ ! إذاً لِماذا تَزَوَّجَها مُحَمَّدٌ ﷺ ؟

لَقَدْ تَزَوَّجَها جَبْرًا لِخاطِرِها ، وَتَهْدِئَةً لِنَفْسِها ، وَطَمْأَنَةً لِبالِها ، إذْ رَفَعَها إلى هَذِهِ المَكانَةِ العالِيَةِ ، وَأَحَلَّها هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ الرَّفيعَةَ ، فَما تَطْمَحُ نَفْسُها في شَيْءٍ بَعْدُ ، وَهَلْ بَعْدَ زَواجِها مِنَ الرَّسولِ الكَريمِ مَنْزِلَةٌ أَوْ مَكانَةٌ ؟

وَانْتَقَلَتْ « سَوْدَة » إلى بَيْتِ الرَّسولِ ﷺ وَهِيَ تُدْرِكُ بِما لَها مِنْ خِبْرَةٍ وَتَجْرِبَةٍ ، أَنَّهُ لا مَكانَ لَها في قَلْبِ مُحَمَّدٍ الرَّجُلِ ، وَإنَّما مَكانَةُ البِرِّ عِنْدَ مُحَمَّد الرَّسولِ ، وَرَضِيَتْ بِذَلِكَ ، وَقَرَّتْ بِهِ عَيْنًا ، وَطَفِقَتْ تَرْعَى شُئُونَ الرَّسولِ الكَريمِ وَشُئُونَ بَناتِهِ ، وَتَنْتَظِرُ مَقْدَمَ الزَّوْجَةِ الصَّبِيَّةِ ، الَّتي خُطِبَتْ يَوْمَ خُطِبَتْ هِيَ ، بِنْتِ أَعَزِّ النّاسِ عِنْدَ رَسولِ اللهِ ، لَبِثَتْ تَتَرَقَّبُ قُدومَ عائِشَةَ بِنْتِ أَبي بَكْر .

وَ قَدمَتْ « عائِشَةُ » إلى بَيْتِ الرَّسول ﷺ فَلَمْ تَغِرْ منْها سَوْدَةُ ، وَإنَّما عَمِلَتْ عَلى مَرْضاتِها ، وَدَأَبَتْ عَلى تَأَلُّفِ قَلْبِها . . وَقَدمَتْ بَعْدَها زَوْجاتٌ : حَفْصَةُ بِنْتُ عُمَرَ ، وَزَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ ، وَأُمُّ سَلَمَةَ وَغَيْرُهُنَّ ، فَلَمْ تَضِقْ «سَوْدَةُ » بِوُجودِهِنَّ ، وَرَأَتْهُنَّ يَتَنافَسْنَ عَلى قَلْبِ الرَّسولِ الزَّوْجِ ، فَلَمْ تَدْخُلْ في الْمُنافَسَةِ ، وَإنَّما آثَرَتْ جانِبَ الزَّوْجَةِ الشّابَّةِ الَّتي كانَتْ أَوَّلَ مَنْ دَخَلَتْ عَلَيْها ، وَهِيَ عائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْها .

وَكانَ الرَّسولُ ﷺ يَضْحَكُ لِفُكاهَةِ سَوْدَةُ ، وَطَريقَةِ مَشْيِها وَكانَتْ ثَقيلَةَ الجِسْمِ ، قالَتْ لَهُ مَرَّةً :

« صَلَّيْتُ خَلْفَكَ البارِحَةَ فَرَكَعْتَ بي ، حَتّى أَمْسَكْتُ بِأَنْفي مَخافَةَ أَنْ يَقْطُرَ الدَّمُ . » تَعْني أَنَّكَ أَطَلْتَ الرُّكوعَ حَتّى خِفْتُ أَنْ يَقْطُرَ الدَّمُ مِنْ أَنْفي فَضَحِكَ الرَّسولُ ﷺ .

وَكانَتْ رَضِيَ اللهُ عَنْها طَيِّبَةَ القَلْبِ ، رَحيمَةَ النَّفْسِ ، قَدْ تَصِلُ في ذَلِكَ أَحْيانًا إلى حَدِّ السَّذاجَةِ . . حَدَثَ بَعْدَ مَوْقِعَةِ بَدْرٍ أَنْ ذَهَبَتْ إلى آلِ عَفْراءَ لِتُقَدِّمَ لَهُمْ واجِبَ

العَزاءِ في عَوْفٍ وَأخيهِ مُعوَّذٍ ابْنَيْ عَفْراء ، وَقَد اسْتُشْهِدا في الغَزْوَةِ ، وَلَمْ تَكُنْ آياتُ الحِجابِ قَدْ نَزَلَتْ بَعْدُ ، وعلى حينِ هِيَ في مَنازِلِ آلِ عَفْراءَ سَمِعَتْ أَنَّ الْمُسْلِمينَ قَدْ جاءوا بالأَسْرَى مِنَ الْمُشْرِكينَ ، فَعادَتْ إلى بَيْتِها ، وَما إنْ بَلَغَتْهُ حَتّى وَجَدَتْ « أبا يزيد سُهَيْل بْن عمرو » ابْنَ عَمِّها ، وَكانَ خَطيبَ قُرَيْش ، وَمِنْ أَشْرافِها وَسادَتِها – وَجَدَتْهُ في ناحِيَةٍ مِنْ حُجْرَتِها ، وَقَدْ شُدَّتْ يَداهُ إلى عُنُقِهِ بحَبْلٍ ، فَلَمْ تَمْلِكْ نَفْسَها أَنْ قالَتْ :

« أَ يُفْعَلُ هَذا بِسُهَيْل بْنِ عمرو ؟» ثُمَّ وَجَّهَتْ لَهُ الحَديثَ: « يا أَبا يَزيد ، هَكَذا أَعْطَيْتُمْ بِأَيْديكُمْ ، وَسَلَّمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ؟ ألا مُتُّمْ كِرامًا ؟»

وَما نَبَّهَها إلا قَوْلُ رَسولِ اللهِ ﷺ وَقَدْ كانَ في البَيْتِ وَلَمْ تَرَهُ : « يا سَوْدَةُ ، أَ عَلى اللهِ وَرَسولِهِ تُحَرِّضينَ ؟»

قالَتْ : « وَالَّذي بَعَثَكَ بالحَقِّ ما مَلَكْتُ نَفْسي حينَ رَأَيْتُهُ أَنْ قُلْتُ ما قُلْتُ . . فَاسْتَغْفِرْ لي ، يا رَسولَ اللهِ . »

فَقالَ الرَّسولُ الكَريمُ الَّذي يَعْرِفُ طيبَةَ قَلْبِها ، وَسَلامَةَ طَوِيَّتِها ، وَصِدْقَ إِسْلامِها : « يَغْفِرُ اللهُ لَكِ ! »

وَيَبْدو أَنَّهُ مِنْ فَرْطِ سَذاجَتِها قَدْ وَقَعَ مِنْها شَيْءٌ أَغْضَبَ الرَّسولَ الكَريمَ فَفَكَّرَ في تَسْريحِها ، فَخافَتْ خَوْفًا شَديدًا، وَهَلِعَتْ نَفْسُها هَلَعًا قَوِيًّا ، فَأَسْرَعَتْ إِلى الرَّسولِ الكَريمِ تَرْجوهُ ، وَتُلْحِفُ في الرَّجاءِ أَنْ يُبْقِيَها وَلا يُفارِقَها ، كَما أَلَحَّتْ عَلَيْهِ في أَنْ تَتَنازَلَ عَنْ يَوْمِها وَ لَيْلَتِها ، وَتَجْعَلَهُما لِلسَّيِّدَةِ عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْها ، وَيَكْفيها أَنْ تَظَلَّ أُمًّا لِلْمُؤْمِنينَ ، وَأَنْ تُحْشَرَ يَوْمَ القِيامَةِ زَوْجَةً لِلرَّسولِ الأَمينِ . . فَقَبِلَ الرَّسولُ الكَريمُ مِنْها ذَلِكَ ، وَكانَ يَقْسِمُ لِعائِشَةَ يَوْمَيْنِ : يَوْمَها وَيَوْمَ سَوْدَةَ .

وَكانَتْ عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْها تُحِبُّها ، وَتَرْضَى عَنْها ، وَتَقولُ : « ما رَأَيْتُ امْرَأَةً أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكونَ في مِسْلاخِها (أَيْ هَدْيِها وَ صَلاحِها) مِنْ سَوْدَةَ . »

وَعاشَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنينَ « سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ » بَعْدَ رَسولِ اللهِ ﷺ حَتّى سَنَةِ ثَلاثٍ وَعِشْرينَ مِنَ الهِجْرَةِ في خِلافَةِ

عُمَرَ بْنِ الخَطّاب ، وَكانَتْ قَدْ لَزِمَتْ بَيْتَها ، حَتّى إِنَّها لَمْ تَخْرُجْ لِلْحَجِّ ، وَذَلِكَ لأَنَّها قالَتْ بَعْدَ حَجَّةِ الوَداعِ ، وَقَدْ حَجَّ فيها الرَّسولُ الكَريمُ بِنِسائِهِ ، قالَتْ : « هَذِهِ الحَجَّةُ ، ثُمَّ ظُهورُ الحُصْرِ » أيْ لُزومُ البَيْتِ وَلا خُروجَ مِنْهُ .

وَكانَتْ تَقولُ : « حَجَجْتُ وَاعْتَمَرْتُ ، فَأَنا أَقَرُّ في بَيْتي كَما أَمَرَني اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ - لا تُحَرِّكُنا دابَّةٌ بَعْدَ رَسولِ اللهِ ﷺ . »

وَحينَ انْتَقَلَتْ في أَواخِرِ خِلافَةِ عُمَرَ رضي الله عنه صَلّى عَلَيْها ، وَدُفِنَتْ بِالبَقيعِ ، رِضْوانُ اللهِ عَلَيْها وَرَحْمَتُهُ .

أُمِّي بَعْدَ أُمِّي
فاطِمَةُ بِنْتُ أَسَدٍ

هَذا ما قالَهُ عَنْها الرَّسولُ ﷺ يَوْمَ انْتَقَلَتْ إلى بارِئِها في الْمَدينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، فَكَفَّنَها في قَميصِهِ ، ونَزَلَ إلى قَبْرِها ، وَاضْطَجَعَ فيهِ ، فَقالَ لَهُ ابْنُ عَبّاسٍ رضي الله عنه : « ما رَأَيْناكَ صَنَعْتَ بِأَحَدٍ ما صَنَعْتَ بِهَذِهِ . »

فَأَجابَهُ ﷺ عَلى مَلإٍ مِنَ الصَّحابَةِ :

« إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَبَرَّ بي بَعْدَ أبي طالِبٍ مِنْها ، إِنَّما أَلْبَسْتُها قَميصي لِيَكْسُوَها اللهُ مِنْ حُلَلِ الجَنَّةِ ، وَاضْطَجَعْتُ في قَبْرِها لِيُهَوِّنَ اللهُ عَلَيْها ضَمَّةَ القَبْرِ وَوَحْشَتَهُ . . لَقَدْ كانَتْ أُمِّي بَعْدَ أُمِّي ! »

كانَتْ فاطِمَةُ زَوْجًا لأبي طالِبٍ عَمِّ الرَّسولِ ﷺ ،

وَهِيَ هاشِمِيَّةٌ ابْنَةُ عَمٍّ لَهُ ، فَلَمّا تُوُفِّيَ عَبْدُ المطَّلِب ، وَانْتَقَلَ الصَّبِيُّ مُحَمَّدٌ إلى كَفالَةِ عَمِّهِ أبي طالِب - لَمْ تَضِقْ فاطِمَةَ بِهِ ذَرْعًا ، وَلَمْ تَجِدْ في انْتِقالِهِ إلى بَيْتِها هَمّا ، عَلى الرَّغْمِ مِنْ كَثْرَةِ العِيالِ ، وَضيق ذاتِ الحالِ ، فَقَدْ كانَ أبو طالِبَ قَليلَ المالِ . وَلَكِنَّهُ نَهَضَ بِواجِبِهِ نَحْوَ ابْنِ أَخيهِ أفْضَلَ ما يَنْهَضُ الرَّجُلُ الشَّريفُ ، وَأَسْعَفَتْهُ زَوْجَتُهُ فاطِمَةُ أَبْلَغَ ما يَكونُ الإسْعافُ ، فَلَمْ تَتَنَكَّرْ لابْنِ أَخيهِ ، بَلْ لَقِيَتْهُ هاشَّةً باشَّةً ، وَضَمَّتْهُ إلى صَدْرِها كَما تَضُمُّ الأُمُّ الرَّءومُ ابْنَها ، وَرَأَتْهُ كَأَنَّ الشَّمْسَ تَطْلُعُ مِنْ جَبْهَتِهِ ، وَشَهِدَتْ فيهِ مِنْ مَخايِلِ النَّجابَةِ وَأَمارات الفَطانَةِ ما لَمْ تَرَهُ في أَبْنائِها . وَأَدْرَكَتْ بِفِطْرَتِها الصّافِيَةِ أَنَّهُ سَيَكونُ لَهُ شَأْنٌ بَيْنَ قَوْمِهِ وَ ذَويهِ . وَلاحَظَتْ بَرَكَتَهُ عَلى بَيْتِها ، فَقَدْ كانَ إذا جَلَسَ إلى الطَّعام مَعَ الأَوْلادِ أَكَلوا وَشَبعوا وَفاضَ الطَّعامُ ، وَإذا لَمْ يَجْلِسْ مَعَهُمْ لَمْ يَكْفِهِمُ الزّادُ ، وَقَدْ يَتَضارَبونَ عَلَيْهِ ، وَلِذا كانَتْ كَثيرًا ما تَحْبِسُهُمْ عَنِ الطَّعامِ حَتّى يَحْضُرَ .

كَما أَنَّها لَمَحَتْ في سُلوكِهِ شَيْئًا لَمْ يَلْمَحْهُ قَبْلَها أَحَدٌ ،

فَقَدْ رَأَتْهُ عازِفًا عَنْ مُشارَكَةِ قَوْمِهِ في أَعْيادِ الآلِهَةِ الَّتي كانوا يَعْبُدونَها ، وَحينَ رَغِبَتْ إِلَيْهِ في أَنْ يَذْهَبَ مَعَ الذّاهِبينَ ، وَيُشارِكَهُمُ احْتِفالَهُمْ ، حَتّى لا تَغْضَبَ عَلَيْهِ الآلِهَةُ - وَجَدَتْ مِنْهُ إِصْرارًا قَوِيًّا عَلى الرَّفْضِ ، وَإِباءً عَزيزًا عَنِ الْمُشارَكَةِ ، لَمْ تَجِدْهُما في الرِّجالِ الأَشِدّاءِ كَما قالَتْ !

أَحَبَّتْ « فاطِمَةُ بِنْتُ أسد » مُحَمَّدًا كَأَحَدِ أَبْنائِها إِنْ لَمْ يَكْثُرْ ، وَسَعِدَتْ حينَما عادَ زَوْجُها أبو طالِب مِنْ رِحْلَتِهِ التِّجارِيَّةِ إِلى الشّام ، الَّتي كانَ قَدِ اصْطَحَبَ فيها مُحَمَّدًا ، وَأَخْبَرَها بِما أَنْبَأَهُ بِهِ الرّاهِبُ بَحيرا ، حينَ دَعا رِجالَ القافِلَةِ إِلى طَعامٍ قَدْ هَيَّأَهُ لَهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ هَذا شَأْنَهُ مَعَهُمْ مِنْ قَبْلُ ، فَأَجابوا دَعْوَتَهُ دَهِشينَ ، وَتَخَلَّفَ الصَّبِيُّ مُحَمَّدٌ عَنِ الطَّعامِ ، فَأَلَحَّ عَلَيْهِمُ الرّاهِبُ في أَنْ يُحْضِروهُ ، ثُمَّ تَفَرَّسَ فيهِ ، وَأَطالَ النَّظَرَ في مَلامِحِهِ ، وَأَكْثَرَ مِنَ السُّؤالِ عَنْهُ ، وَعَنْ حَياتِهِ ، ثُمَّ قالَ لِعَمِّهِ :

« احْرِصْ عَلى ابْنِ أَخيكَ ، فَإِنَّهُ سَيَكونُ لَهُ شَأْنٌ كَبيرٌ ، وَهُوَ نَبِيُّ آخِرِ الزَّمانِ ، وَهُوَ سَيِّدُ العالَمينَ كَما نَجِدُهُ في

كُتُبنا . إنَّ وَجْهَهُ وَجْهُ نَبيٍّ ، وَعَيْنَيْهِ عَيْنا نَبيّ كَما نَجدُ صِفَتَهُ في كُتُبنا . . إنَّهُ سَيُوحَى إلَيْهِ مِنَ اللهِ ، وَسَيُرْسِلُهُ اللهُ رَحْمَةً لِلْعالَمينَ . »

لَقَدْ وَجَدَتْ فاطِمَةُ في هَذا الحَديثِ الَّذي أَنْبَأَها بِهِ زَوْجُها تَصْديقًا لِفَراسَتِها الفِطْرِيَّةِ الصّافِيَةِ ، فَحَبَتْ مُحَمَّدًا ﷺ بعَطائِها أكْثَرَ مِنْ ذي قَبْلُ ، وَأحاطَتْهُ ببِرِّها وَحَنانِها ، عَلَّها تُعَوِّضُهُ ما فَقَدَهُ بمَوْتِ أُمِّهِ وَأَبيهِ ، وَبادَلَها هُوَ بِرًّا ببِرٍّ ، وَحُبّا بحُبٍّ ، فَحينَ تَقَدَّمَ بِهِ العُمْرُ ، وَتَزَوَّجَ مِنْ خَديجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ - ضَمَّ إلَيْهِ ابْنَها « عَليّا » ، لِيُخَفِّفَ الْمَئونَةَ عَلى عَمِّهِ صاحِبِ العِيالِ وَقَليلِ المالِ ، وَكانَتْ توصي ابْنَها بِقَوْلِها : « اِلْزَمِ ابْنَ عَمِّكَ فَإنَّ لَهُ فَضْلاً . »

وَكانَتْ تَرْقُبُ حَرَكَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ في الْحَياةِ ، وَتُبارِكُ خُطُواتِهِ ، وَتَسْعَدُ لِما يُذيعُهُ النّاسُ مِنْ صِدْقِهِ وَأمانَتِهِ ، وَبَلَغَتْ سَعادَتُها قِمَّةً بالِغَةً حينَ حَقَنَ الدِّماءَ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَهُمْ مُخْتَلِفونَ فيمَنْ يَضَعُ الحَجَرَ الأَسْوَدَ في مَكانِهِ بَعْدَ تَجْديدِهِمْ بِناءَ الكَعْبَةِ .

وَلَمّا مَنَّ اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ ﷺ بالرسالَةِ ، وَاصْطَفاهُ لِيُبَلِّغَ الوَحْيَ لِلْعالَمينَ ، وَأَسْرَعَ يَدْعو أَهْلَهُ وَعَشيرَتَهُ - كانَتْ فاطِمَةُ مِنْ أَوَّلِ الْمُسْتَجيبينَ ؛ فَقَدْ كانَ هَذا ما تَنْتَظِرُهُ مُنْذُ حينٍ ، وَلَمْ يَغْضَبْ مِنْها أبو طالِب ، وَلَمْ يَضِقْ بها ذَرْعُهُ ، فَقَدْ كانَ الرِّدْءَ الَّذي يَلوذُ بِهِ الرَّسولُ ﷺ ، كَما كانَتْ خَديجَةُ السَّكَنَ الَّذي يَأوي إِلَيْهِ بَعْدَ جِهادٍ عَنيفٍ مَعَ قَوْمِهِ ، لِيُخَلِّصَهُمْ مِنَ الكُفْرِ وَالضَّلالِ ، وَلِيُخْرِجَهُمْ مِنْ ظُلُماتِ الجَهالَةِ إِلى نورِ الإيمانِ وَالإِسْلامِ .

أَقْبَلَتْ « فاطِمَةُ » عَلى الإسْلام بِقَلْبٍ مَفْتوحٍ ، وَصَدْرٍ مُنْشَرِحٍ ، وَنَفْسٍ مُتَعَطِّشَةٍ ، فَتَذَوَّقَتْ حَلاوَتَهُ ، وَخالَطَتْ قَلْبَها بَشاشَتُهُ ، فَحَفِظَتْ مِنَ القُرْآنِ الكَريمِ ما اسْتَطاعَتْ ، وَتَفَقَّهَتْ في الدّينِ قَدْرَ طاقَتِها ، وَ وَعَى عَنْها أَبْناؤُها ذَلِكَ كُلَّهُ ، فَاقْتَدَوْا بِها ، وَ ساروا عَلى نَهْجِها ، حَتّى بَلَغَ ابْنُها « عَلِيٌّ » الشَّأْوَ الرَّفيعَ في العِلْمِ وَالدّينِ ، فَكانَ يُعْتَبَرُ « مِفْتاحَ بابِ العِلْمِ » ، وكانَ يَعْتَزُّ بِعِلْمِهِ ، وَيَقولُ : «اِسْأَلوني قَبْلَ أَنْ تَفْقِدوني ، فَوَاللهِ ما في هَذا الدّينِ شَيْءٌ إلا وَأَعْلَمُهُ . »

وَكانَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ يَقولُ : « لَوْلا عَليٌّ لَهَلَكَ عُمَرُ ! »

وَحينَ بَلَغَ الخِصامُ أوِ النِّزاعُ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَالرَّسول ﷺ أَشُدَّهُ ، وَلَمْ يَتَخَلَّ أبو طالِبٍ عَنِ ابْنِ أَخيهِ ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ قُرَيْش أَنْ تَنالَ مِنَ الْمُسْلِمينَ مَنالاً . . حينَئِذٍ عَمَدَتْ قُرَيْشٌ إلى مُقاطَعَةِ أبي طالِب وَ شيعَتِهِ مِنْ بَني هاشِم ، وَحاصَرَتْهُمْ في شِعْبِ أبي طالِب ، وَكانَتْ فاطِمَةُ بِنْتُ أسَد بَيْنَ الْمُحاصَرينَ ، وَتَحَمَّلَتْ ما تَحَمَّلَهُ غَيْرُها مِنْ بَني هاشِم ، مِنْ قَسْوَةِ الحَياةِ في ظِلِّ الحِصارِ ، وَمِنْ آلامِ الجوعِ وَشَظَفِ العَيْشِ ، حَتّى آذَنَ اللهُ بانْقِشاعِ الغُمَّةِ ، وَتَفْريجِ الكَرْبِ ، وَلَكِنَّ زَوْجَها خَرَجَ مِنَ الحِصارِ مُنْهَكَ الْقُوى ، ضَعيفَ الجِسْمِ ، وَلَمْ يَلْبَثْ إلا قَليلاً حَتّى ماتَ !

وَحَزِنَتْ فاطِمَة بِنْتُ أسَد عَلى زَوْجِها حُزْنَيْنِ : حُزْنًا لأَنَّهُ ماتَ وَلَمْ يُعْلِنْ إسْلامَهُ ، وَحُزْنًا لأَنَّ الرَّسولَ الكَريمَ فَقَدَ بِمَوْتِهِ مَنْ يَحْميهِ وَ يَذودُ عَنْهُ ، حَتّى إنَّ قُرَيْشًا طَمِعَتْ فيهِ ، وَبَلَغَتْ مِنْهُ ما لَمْ تَكُنْ تَبْلُغُهُ في حَياةِ عَمِّهِ ، وَ وَضَعَ بَعْضُهُم التُّرابَ فَوْقَ رَأْسِهِ ﷺ !

ظَلَّتْ فاطِمَةُ بِنْتُ أسَد في مَكَّةَ تَرْقُبُ إيذاءَ قُرَيْش لِلرَّسولِ الكَريمِ وَلِلْمُسْلمينَ ، وَتَنْفِرُ مِنْهُ ، وَتَلومُ « أبا لَهَب » عَمَّ الرَّسولِ لأنَّهُ لَمْ يَقِفْ إلى جوارِ ابْنِ أخيهِ كَما وَقَفَ أبو طالِب مِنْ قَبْلُ ، وَلَكِنَّ لَوْمَها لَمْ يُحَرِّكْ مُروءَتَهُ ، وَلَمْ يُثِرْ شَهامَتَهُ ، فَقَدْ كانَتِ امْرَأتُهُ « أُمُّ جميل » أقْوى عَلَيْهِ سُلْطانًا ، فَلَمْ يُخالِفْها إلى ما كانَتْ تَنْزِعُ إلَيْهِ نَفْسُهُ بَيْنَ الْحينِ وَ الْحينِ .

وَكانَتْ « فاطِمَةُ » تَبُثُّ في ابْنِها « عَلِيٍّ » روحَ القُوَّةِ وَالشَّجاعَةِ ، وَتُشَدِّدُ عَلَيْهِ في أَنْ يَنْصُرَ ابْنَ عَمِّهِ رَسولَ اللهِ ﷺ ، وَتُحَبِّبُ إلَيْهِ التَّضْحِيَةَ وَالفِداءَ في سَبيلِ إعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ . . وَكَمْ كانَتْ سَعادَتُها غامِرَةً حينَما جاءَتْها الأَنْباءُ بِأَنَّ « عَلِيّا » ابْنَها قَدْ فَدى الرَّسولَ الكَريمَ بِنَفْسِهِ ، وَباتَ في مَضْجَعِهِ لَيْلَةَ الهِجْرَةِ ! فَقَدْ كانَتْ سَبَقَتْ في الهِجْرَةِ إلى الْمَدينَةِ ، وَأَقامَتْ هُناكَ تَنْتَظِرُ مَقْدَمَ رَسولِ اللهِ ﷺ مَعَ الْمُنْتَظِرينَ ، كَما تَنْتَظِرُ مَقْدَمَ أَبْنائِها قَبْلَهُ أوْ مَعَهُ .

وَتَناهَتْ فَرْحَتُها حينَ اجْتَمَعَ شَمْلُ البَيْتِ النَّبَوِيِّ في الْمَدينَةِ ، وَشَمَلَ الرَّسولُ ﷺ ابْنَها « عَلِيّا » بِعَطْفِهِ وَبِرِّهِ ،

فَزَوَّجَهُ ابْنَتَهُ « فاطِمَةَ الزَّهْراءَ » ، الَّتي انْتَقَلَتْ مِنْ بَيْتِ النُّبُوَّةِ لِتَعيشَ مَعَ زَوْجِها وَأُمِّهِ . وَأَحَسَّ « عَلِيٌّ » رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ زَوْجَهُ قَدْ أُرْهِقَتْ بِالعَمَلِ خارِجَ البَيْتِ في جَلْبِ المِياهِ وَما تَتَطَلَّبُهُ الأُسْرَةُ ، وَبِالعَمَلِ داخِلَ البَيْتِ فيما يَحْتاجونَهُ ، فَطَلَبَ مِنْ أُمِّهِ أَنْ تَكْتَفِيَ « فاطِمَةُ الزَّهْراءُ » بِالعَمَلِ داخِلَ البَيْتِ ، دونَ أَنْ تَخْرُجَ لِجَلْبِ المِياهِ وَمَئونَةِ الحَياةِ !

وَاسْتَجابَتِ الأُمُّ لِرَغْبَةِ ابْنِها ، وَهِيَ الَّتي تَعْلَمُ قَدْرَ فاطِمة الزَّهْراءِ ، وَتَمْحَضُ الحُبَّ خالِصًا لأَبيها رَسولاً وَقَبْلَ أَنْ يَكونَ رَسولاً ؛ فَقَدْ كانَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ كَأَنَّهُ ابْنُها الَّذي حَمَلَتْهُ وَ وَضَعَتْهُ ، وَسَهِرَتْ عَلَيْهِ ، وَحَبَتْهُ كُلَّ بِرِّها وَحَنانِها . . وَكانَ الرَّسولُ الكَريمُ يُقَدِّرُ لَها ما بَذَلَتْهُ في سَبيلِهِ ، وَما تَتَدَفَّقُ بِهِ مَشاعِرُها نَحْوَهُ مِنْ بِرٍّ وَعَطْفٍ وَحَنانٍ ، إِلى أَنْ وافاها الأَجَلُ الْمَحْتومُ ، فَكانَ صَنيعُهُ مَعَها الَّذي بَدَأْنا بِهِ هَذا الحَديثَ .

بائعُ الجَمَل
جابرِ بنُ عَبْدِ اللَّه

خَرَجَ « عَبْدُ اللهِ بْنُ حَرام » مِنْ يَثْرِبَ (الْمَدينَةِ) مَعَ جَماعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ إلى مَكَّةَ ، يَبْتَغونَ الحَجَّ ، وَخَلَّفَ وَراءَهُ ابْنَهُ « جابر » ، وَأَوْصاهُ بِمَزْرَعَتِهِ الصَّغيرَةِ خَيْرًا ، وَبِرعايَةِ أَخَواتِهِ البَناتِ . وكانَ « جابر » صَبِيًّا لَمْ يَبْلُغِ الحُلُمَ بَعْدُ ، وَلَكِنَّ اللهَ مَنَحَهُ جِسْمًا ناضِجًا ، وَعَقْلاً واعِيًا ، وَذِهْنًا صافِيًا ، وَبَصيرَةً ثاقِبَةً ، مِمّا يُتيحُ لَهُ أَنْ يَتَعَهَّدَ الْمَزْرَعَةَ خَيْرَ تَعَهُّدٍ ، وَأَنْ يَقومَ بِشُئونِ أَخَواتِهِ أَفْضَلَ قِيامٍ ، وَكُنَّ سَبْعًا .

وكَانَ مِنْ بَيْنِ هَذِهِ الجَماعَةِ مُسْلِمونَ : أَسْلَموا عَلى يَدِ أَوَّلِ مُبَشِّرٍ بِالإِسْلام خارِجَ مَكَّةَ (مُصْعَب بْن عُمَيْر [1])

(١) انظر سيرته في كتابنا « فاتح مصر » من هذه السلسلة .

الَّذي بَعَثَهُ الرَّسولُ ﷺ لِيُقْرِئَ مَنْ أَسْلَموا مِنْ أَهْلِ الْمَدينَةِ القُرْآنَ ، وَيُعَلِّمَهُمْ أَرْكانَ الإِسْلام ، وَيَنْشُرَ الدَّعْوَةَ بَيْنَ أَهْلِها . وَكانَ هَؤُلاءِ الْمُسْلِمونَ قَدْ تَواعَدوا عَلى لِقاءِ الرَّسولِ الكَريمِ عِنْدَ العَقَبَةِ ، وَكَتَموا هَذا الْمَوْعِدَ عَمَّنْ مَعَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكينَ .

وَكانَ « عَبْدُ اللهِ » سَيِّدًا مِنْ ساداتِهِمْ ، وَشَريفًا مِنْ أَشْرافِهِمْ ، لَمْ يُسْلِمْ بَعْدُ ، وَلَكِنَّهُ ذو عَقْلٍ راجِحٍ ، وَرَأْيٍ ناصِحٍ ، وَقَلْبٍ ذَكِيٍّ ، وَضَميرٍ أَبِيٍّ ، فَقالَ بَعْضُ الْمُسْلِمينَ : « لِماذا لا نُكَلِّمُ سَيِّدَنا وَشَريفَنا في أَمْرِنا ، وَهُوَ مَنْ هُوَ في عَقْلِهِ وَبَصيرَتِهِ ؟ »

وَاسْتَقَرَّ رَأْيُهُمْ عَلى مُفاتَحَتِهِ في أَمْرِ إِسْلامِهِ ، فَوَجَدوا مِنْهُ أُذُنًا مُصْغِيَةً ، وَصَدْرًا مُنْشَرِحًا ، وَقَلْبًا مُتَفَتِّحًا ، فَأَخَذوهُ مَعَهُمْ إِلى مَوْعِدِهِمْ مَعَ الرَّسولِ الكَريمِ ، فَبايَعَ الرَّسولَ ﷺ في بَيْعَةِ العَقَبَةِ الثّانِيَةِ ، وَكانَ نَقيبًا مِنَ النُّقَباءِ الاثْنَيْ عَشَرَ .

وَعادَ « عَبْدُ اللهِ » إِلى بَلَدِهِ يَثْرِبَ ، وَقَدِ اطْمَأَنَّ قَلْبُهُ إِلى

الإيمان ، وَتَذَوَّقَ حَلاوَتَهُ ، وَاسْتَضاءَتْ نَفْسُهُ بنورِهِ ، فَدَعا أُسْرَتَهُ إِلَيْهِ ، فَشَرَحَ اللهُ صَدْرَها لِلإِسْلامِ ، وَغَدَتْ أُسْرَةً مُسْلِمَةً . . وَهَكَذا نَشَأَ « جابرٌ » في رِحابِ الإِسْلامِ ، لَمْ يَعْرِفْ عِبادَةَ الأَصْنامِ ، وَإِنَّما عَرَفَ القُرْآنَ ، وَلَمْ يَتَقَرَّبْ إلى الأَوْثانِ ، وَإِنَّما تَقَرَّبَ إلى اللهِ الواحِدِ ، وَراحَ يَجْتَهِدُ في إِسْلامِهِ ، وَيَتَعَرَّفُ مَعالِمَهُ وَحُدودَهُ ، لِيَكونَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِهِ . . يَغْدو في أَوَّلِ النَّهارِ إلى مَزْرَعَةِ أَبيهِ ، فَيُنْفِقُ في رِعايَتِها ما شاءَ اللهُ لَهُ أَنْ يُنْفِقَ مِنَ الجُهْدِ وَالوَقْتِ ، ثُمَّ يَروحُ آخِرَ النَّهارِ إلى تِلْكَ الحَلْقاتِ الَّتي يُنَظِّمُها أَوَّلُ مُبَشِّرٍ بالإِسْلامِ خارِجَ مَكَّةَ « مُصْعَب بن عُمَيْر » ، فَيَسْمَعُ مِنْهُ القُرْآنَ ، يُرَتِّلُهُ بِصَوْتِهِ العَذْبِ الحَنونِ ، فَيَمْلأُ القُلوبَ راحَةً وَأَمْنًا ، وَيَنْسَكِبُ في الصُّدورِ سَكينَةً وَسَلامًا .

وَذاتَ يَوْمٍ خَرَجَ « جابر » مِنْ دارِهِ ، فَإِذا هُوَ يَرى أَهْلَ يَثْرِب (المَدينَة) في بَهْجَةٍ لَمْ يَعْهَدْها ، وَتَنْطِقُ وجُوهُهُمْ بِبِشْرٍ لَمْ يَعْرِفْهُ فيها مِنْ قَبْلُ ، فَتَساءَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ :

« ما هَذا الَّذي يَحْدُثُ بَيْنَ أَهْلي وَعَشيرَتي ؟ وَما الَّذي

طَرَأ عَلَيْهِمْ حَتّى أصابَهُمْ بِهَذِهِ البَهْجَةِ وَهَذا الْحُبورِ؟»

وَلَمْ يَطُلِ انْتِظارُهُ ، فَقَدْ جاءَهُ الجَوابُ مُسْرِعًا . . إنَّ أهْلَ يَثْرِب جَميعًا - نِساءً وَرِجالاً ، شُيوخًا وَأطفالاً - يَنْتَظِرونَ مَقْدَمَ الرَّسولِ ﷺ مُهاجِرًا مِنْ مَكَّةَ إلَيْهِمْ ، فَانْضَمَّ إلَيْهِمْ ، وَانْتَظَمَ في عِقْدِهِمْ ، وَراحَ يُشَنِّفُ أُذُنَيْهِ بِهَذا النَّشيدِ الحُلْوِ العَذْبِ تَتَغَنّى بِهِ بَناتُ الأَنْصارِ ، وَيَشْعُرُ أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ مِثْلَهُ نَشيداً ، وَلَمْ يُمْتِعْ سَمْعَهُ بِمِثْلِهِ غِناءً ، لِأَنَّهُ يُصَوِّرُ هَذِهِ العاطِفَةَ الجَيّاشَةَ الَّتي لا تُخالِطُها الْمُصانَعَةُ ، ولا تُكَدِّرُها الْمُخادَعَةُ ، وَإنَّما هِيَ عاطِفَةُ صَفْوٍ عَفْوٍ ، تَصْدُرُ عَنِ القُلوبِ فَتَبْلُغُ القُلوبَ ، فَتَمْلَؤُها بَهْجَةً وَسُروراً ، وَمُتْعَةً وَحُبوراً .

اِسْتَمِعَ إلى فَتَياتِ الْمَدينَةِ وَهُنَّ يُنْشِدْنَ :

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنا   مِنْ ثَنِيّاتِ الوَداعْ
وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنا   ما دَعا للهِ داعْ
أَيُّها الْمَبْعوثُ فينا   جِئْتَ بِالأَمْرِ الْمُطاعْ
جِئْتَ شَرَّفْتَ الْمَدينَةَ   مَرْحَبًا يا خَيْرَ داعْ

وَشاهَدَ الرَّسولُ ﷺ وَهُوَ يَمْتَطي ناقَتَهُ ، وَكُلَّما مَرَّ عَلى حَيٍّ مِنْ أَحْياءِ الأَنْصارِ ، أَخَذوا بِخِطامِ ناقَتِهِ ، وَدَعَوْهُ إِلى النُّزولِ عِنْدَهُمْ ، وَالإِقامَةِ بَيْنَهُمْ ، لِيَكونَ ذَلِكَ تَشْريفًا وَتَكْريمًا ، وَهُوَ يَقولُ لَهُمْ : « خَلّوا سَبيلَها فَإِنَّها مَأْمورَةٌ . »

وَلَمْ تَزَلْ سائِرَةً في طَريقِها حَتّى بَلَغَتْ حَيَّ بَني النَّجّارِ فَبَرَكَتْ ، وَلَمْ يَنْزِلْ عَنْها الرَّسولُ الأَمينُ ، وَإِذا هِيَ تَنْهَضُ وَتَسيرُ إِلى الأَمامِ قَليلاً ، ثُمَّ تَلْتَفِتُ وَتَرْجِعُ إِلى الوَراءِ فَتَبْرُكُ ، وَيَنْزِلُ عَنْها رَسولُ اللهِ ﷺ ، وَيَقولُ : « هَذا هُوَ الْمَنْزِلُ إِنْ شاءَ اللهُ . » وَيَتْلو قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ رَبِّ أَنْزِلْني مُنْزَلاً مُبارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلينَ ﴾ . وَيُبادِرُ « أبو أيّوب » فَيَأْخُذُ رَحْلَهُ ، وَيُدْخِلُهُ إِلى بَيْتِهِ . وَهَذا الْمَنْزِلُ الْمُبارَكُ هُوَ الَّذي يَقومُ عَلَيْهِ مَسْجِدُهُ ﷺ في الْمَدينَةِ الْمُنَوَّرَةِ .

وَكانَتْ هَذِهِ اللَّحْظَةُ لَحْظَةً فارِقَةً حاسِمَةً في حَياةِ «جابر » ؛ إِذْ لَزِمَ رَسولَ اللهِ ﷺ كَما يَلْزَمُ الإِنْسانَ ظِلُّهُ ، وَكانَ دائِمًا مَعَ أَبيهِ في رِحابِ الرَّسولِ الْحَبيبِ ، الَّذي

أَحَبَّهُ وَأَحَبَّ أَباهُ حُبًّا جَمًّا ، وَكانَ الرَّسولُ الكَريمُ أَحَبَّ إِلَيْهِما مِنَ النَّفْسِ وَالمالِ وَالأَهْلِ وَالوَلَدِ !

وَجاءَ يَوْمُ بَدْرٍ فَلَمْ يَأْذَنِ الرَّسولُ الأَمينُ لـ « جابر » بِالخُروجِ مَعَ المُسْلِمينَ ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ سِنًّا تُؤَهِّلُهُ لِذَلِكَ ، فَقَنِعَ بِمُشارَكَةِ المُسْلِمينَ فَرْحَةَ النَّصْرِ ، وَلَكِنَّهُ ﷺ أَذِنَ لَهُ في الخُروجِ يَوْمَ أُحُدٍ ، بَعْدَ أَنِ احْتَكَمَ هُوَ وَأَبوهُ إِلى الرَّسولِ الكَريمِ ، فَقَدْ قالَ لَهُ أَبوهُ :

« يا بُنَيَّ ، إِنَّهُ لا يَنْبَغي لي وَلا لَكَ أَنْ نَتْرُكَ هَؤُلاءِ النِّسْوَةَ لا رَجُلَ فيهِنَّ ، وَلَسْتُ بِالَّذي أوثِرُكَ بِالجِهادِ مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ عَلى نَفْسي ، فَتَخَلَّفْ عَلى إِخْوَتِكَ . وَإِنّي لا أُراني إِلا مَقْتولاً في هَذِهِ الغَزْوَةِ ، وَإِنّي - وَاللهِ - لا أَدَعُ أَحَدًا بَعْدي أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْكَ بَعْدَ رَسولِ اللهِ ﷺ ، وَإِنَّ عَلَيَّ دَيْنًا ، فَاقْضِ عَنّي دَيْني ، وَاسْتَوْصِ بِإِخْوَتِكَ خَيْرًا . »

وَلَكِنَّ الرَّسولَ القائِدَ أَجابَهُ إِلى رَغْبَتِهِ في الجِهادِ ، فَخَرَجَ مُقاتِلا مَعَ أَبيهِ .

وَدارَتْ رَحى المَعْرَكَةِ (١) ، وَحَمِيَ وَطيسُها ، وَاشْتَدَّ

(١) انظر هذه الغزوة في كتابنا « الرسول في المدينة » من هذه السلسلة .

أُوارُها ، وَكانَ النَّصرُ حَليفَ الْمُسْلمينَ ، حَتّى خالَفَ الرُّماةُ عَنْ أَمْرِ الرَّسولِ القائِدِ فَتَبَدَّلَ النَّصرُ هَزيمَةً ، وَنَزَلَتِ الْمِحْنَةُ بالْمُسْلِمينَ ، وَاسْتُشْهِدَ كَثيرٌ مِنَ الْمُسْلِمينَ ، كانَ مِنْ بَيْنِهِمْ « عَبْدُ اللهِ بْنُ حَرام » والِدُ « جابِرٍ » .

وَرَأى « جابِرٌ » أَباهُ بَيْنَ الشُّهَداءِ ، وَقَدْ مَثَّلَ بِهِ الْمُشْرِكونَ كَما مَثَّلوا بِغَيْرِهِ ، فَجَعَلَ يَرْفَعُ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَبْكي ، وَالصَّحابَةُ يَنْهَوْنَهُ عَنِ الْبُكاءِ ، فَقَدْ قَضى نَحْبَهُ شَهيدًا في سَبيلِ اللهِ ، وَالرَّسولُ الْكَريمُ لا يَنْهاهُ عَنِ الْبُكاءِ ، وَيَقولُ : « ابْكوهُ أَوْ لا تَبْكوهُ ؛ فَإِنَّ الْمَلائِكَةَ تُظَلِّلُهُ بِأَجْنِحَتِها . » وَلَمّا جاءَ دَوْرُهُ في الدَّفْنِ قالَ الرَّسولُ القائِدُ : « انْظُروا فَاجْعَلوا عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرو بْنِ حرام وَعَمْرو ابْنِ الجموح في قَبْرٍ واحِدٍ ، فَإِنَّهُما كانا في الدُّنْيا مُتَحابَّيْنِ مُتَصافِيَيْنِ . »

وَتَلَقَّتِ الأَرْضُ الطّاهِرَةُ جُثْمانَيْهِما بَعْدَ أَنْ شَهِدَتْ بُطولَتَهُما الخارِقَةَ !

وَبَعْدَ سِتٍّ وَأَرْبَعينَ سَنَةً أَرادَ مُعاوِيَةُ أَنْ يُجْرِيَ عَيْنَ ماءٍ لِسَقْيِ الزُّروعِ ، فَأَمَرَ بِنَقْلِ رُفاتِ شُهَداءِ أُحُدٍ مِنْ مَجْرى

الْماءِ ، وَكانَ « جابر » لا يَزالُ حَيًّا ، فَأَسْرَعَ مَعَ غَيْرِهِ مِنَ الْمُسْلِمينَ لِنَقْلِ الرُّفاتِ ، فَوَجَدَ أَباهُ وَزَوْجَ عَمَّتِهِ عَمْرو ابْنَ الجموحِ كَأَنَّهُما في قَبْرِهِما نائِمانِ ، لَمْ تَأْكُلِ الأَرْضُ مِنْهُما شَيْئًا ، وَلَمْ تُفارِقْ شِفاهَهُما بَسْمَةُ الرِّضا وَالاطْمِئْنانِ الَّتي كانَتْ تَرِفُّ عَلَيْها يَوْمَ دُعِيا لِلِقاءِ اللهِ !

وَلا عَجَبَ في ذَلِكَ ، فَإِنَّ الأَرْواحَ الكَبيرَةَ التَّقِيَّةَ النَّقِيَّةَ الَّتي سَيْطَرَتْ عَلى مَصيرِها - تَتْرُكُ في الأَجْسادِ الَّتي كانَتْ مَوْئِلاً لَها قَدْرًا مِنَ الْمَناعَةِ ، يَدْرَأُ عَنْها عَوامِلَ التَّحَلُّلِ ، وَيَدْفَعُ عَنْها سَطْوَةَ التُّرابِ ! أَ لَيْسوا شُهَداءَ ؟ وَالشُّهَداءُ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقونَ .

أَصْبَحَ « جابر » بَعْدَ اسْتِشْهادِ أَبيهِ حَزينَ النَّفْسِ ، كَسيرَ الخاطِرِ ، لا لأَنَّ أَباهُ قَد اسْتُشْهِدَ ، بَلْ لأَنَّ أَعْباءً كَثيرَةً تُثْقِلُ ظَهْرَهُ فَلا يَسْتَطيعُ النُّهوضَ بِها ، لَقَدْ تَرَكَ أَبوهُ وَراءَهُ دَيْنًا عَلَيْهِ أَنْ يَقْضِيَهُ ، وَأَخَواتٍ سَبْعًا عَلَيْهِ أَنْ يَعولَهُنَّ ، وَما تُدِرُّهُ الْمَزْرَعَةُ قَليلٌ لا يَكْفي لِلْوَفاءِ بِهَذِهِ التَّبِعاتِ . .
وَلاحَظَ الرَّسولُ الكَريمُ انْكِسارَ « جابِرٍ » وَحُزْنَهُ ، فَقالَ لَهُ ذاتَ يَوْمٍ :

« يا جابِرُ ، ألا أُبشِّرُكَ بِما لَقِيَ اللهُ بِهِ أَباكَ ؟»

قالَ جابِر : « بَلى ، يا رَسولَ اللهِ . »

قالَ الرَّسولُ الكَريمُ : « إنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْيا أَباكَ ، وَ كَلَّمَهُ كِفاحًا - أيْ مُواجَهَةً - وَ ما كَلَّمَ اللهُ أَحَدًا إلا مِنْ وَراءِ حِجابٍ . . فَقالَ لَهُ : ‹‹ يا عَبْدي ، سَلْني أُعْطِكَ . ››

« فَقالَ : ‹‹ يا رَبِّ ، أَسْأَلُكَ أَنْ تَرُدَّني إلى الدُّنْيا لأُقْتَلَ في سَبيلِكَ مَرَّةً ثانِيَةً . ››

« قالَ اللهُ : ‹‹ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا أَنَّهُمْ إِلَيْها لا يُرْجَعونَ .››

« قالَ : ‹‹ يا رَبِّ ، أَبْلِغْ مَنْ وَرائي بِما أَعْطَيْتَني مِنْ نِعْمَةٍ . ››

« فَنَزَلَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَ جَلَّ : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتِلوا في سَبيلِ اللهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقونَ . فَرِحينَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ يَسْتَبْشِرونَ بِالَّذينَ لَمْ يَلْحَقوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ألاّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنونَ . ﴾

طَفَرَتِ الدُّموعُ مِنْ عَيْنَيْ جابِرٍ وَ هُوَ يَسْمَعُ هَذِهِ البُشْرى

مِنْ رَسولِ اللهِ ﷺ ، وَبَدَتْ عَلى وَجْهِهِ عَلاماتُ السُّرور ، وَبَرَقَتْ أَساريرُهُ ، وَلَزِمَ الرَّسولَ الكَريمَ لا يُفارِقُهُ في حِلٍّ أَوْ سَفَرٍ ، وَشَهِدَ مَعَهُ الغَزَواتِ كُلَّها . . شَهِدَ غَزْوَةَ الأَحْزابِ ، وَغَزْوَةَ بَني قُرَيْظَةَ ، وَغَزْوَةَ بَني الْمُصْطَلَق . . كَما شَهِدَ صُلْحَ الْحُدَيْبِيَةِ ، وَبايَعَ الرَّسولَ القائِدَ بَيْعَةَ الرِّضْوانِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، وَشَهِدَ غَزْوَةَ ذاتِ الرِّقاعِ ، وَقَدْ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لأَنَّ الْمُسْلِمينَ قَطَعوا فيها مَسافاتٍ طَويلَةً إلى عَدُوِّهِمْ سَيْرًا عَلى أَقْدامِهِمْ ، إِذْ لَمْ يَجِدوا مِنَ الرَّواحِلِ ما يَحْمِلُهُمْ ، وكانوا يَمْشونَ عَلى الرِّمال السّاخِنَةِ ، وَفَوْقَ الصُّخورِ الوَعِرَةِ ، حَتّى تَشَقَّقَتْ أَقْدامُهُمْ ، وَ دَمِيَتْ مِنْ كَثْرَةِ الْجُروحِ ، فَكانوا يَعْصِبونَها بِما يَجِدونَ مِنْ رُقَعٍ وَ ثِيابٍ خَلَقَةٍ .

وَ قَدْ شارَكَ جابِر فيها عَلى جَمَلٍ هَزيلٍ ضَعيفٍ ، وَفي أَثْناءِ عَوْدَتِهِمْ بَعْدَ أَنْ فَرَّ العَدُوُّ وَ لَمْ يَصْمُدْ لَهُمْ - لاحَظَ الرَّسولُ القائِدُ تَأَخُّرَ جابِر عَنْ رِفاقِهِ ، فَاسْتَأْنى بِناقَتِهِ حَتّى لَحِقَ بِهِ جابِر فَقالَ لَهُ ﷺ : « ما الَّذي أَبْطَأَ بِكَ ؟ »

فَأَجابَ جابِر : « هَذا الجَمَلُ الهَزيلُ ، يا رَسولَ اللهِ . »

فَقالَ لَهُ الرَّسولُ القائِدُ : « أَنِخْهُ ، يا جابِرُ . »

فَأَناخَهُ جابر ، ثُمَّ قالَ لَهُ الرَّسولُ ﷺ : « أَعْطِني هَذِهِ العَصا . »

فَنَخَسَهُ بِها مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ، ثُمَّ قالَ لِجابر : « اِرْكَبْ جَمَلَكَ . »

فَرَكِبَ جابِر وَ انْطَلَقَ بِهِ الجَمَلُ حَتّى إِنَّهُ كادَ يَسْبِقُ ناقَةَ رَسولِ اللهِ ﷺ . ثُمَّ قالَ الرَّسولُ الكَريمُ لِجابر : « أَتَبيعُني هَذا الجَمَلَ ، يا جابِرُ . »

فَأَجابَ جابِرٌ : « بَلْ أَهَبُهُ لَكَ ، يا رَسولَ اللهِ . »

فَقالَ الرَّسولُ الكَريمُ : « لا ، بَلْ أَشْتَريهِ . »

قالَ جابِرٌ : « إِذًا فَساوِمْني فيهِ ، يا رَسولَ اللهِ . »

فَقالَ الرَّسولُ الكَريمُ : « أَشْتَريهِ بِدِرْهَمٍ . »

قالَ جابِر : « إِنَّكَ حينَئِذٍ تُنْقِصُني في سِعْرِهِ . »

وَما زالَ الرَّسولُ الكَريمُ يَرْفَعُ في ثَمَنِ الجَمَلِ حَتّى بَلَغَ أوقِيَّةً مِنْ فِضَّةٍ ، فَرَضِيَ جابِر وَ قالَ : « بارَكَ اللهُ لَكَ فيهِ ، يا رَسولَ اللهِ . »

وَما إنْ بَلَغوا الْمَدينَةَ الْمُنَوَّرَةَ ، وَأَلْقى جابرٌ مَتاعَهُ عَنِ الْجَمَلِ ، حَتّى جاءَ بِهِ مُسْرِعًا إلى رَسولِ اللهِ ﷺ فَرَبَطَهُ أَمامَ الْمَسْجِدِ ، وَلَمّا خَرَجَ الرَّسولُ الكَريمُ سَأَلَ : « ما هَذا ؟»

فَقالوا : « جَمَلٌ أَتى بِهِ جابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ . »

فَنادى عَلَيْهِ ، وَقالَ لَهُ : « هُوَ لَكَ ، يا جابِرُ . » ثُمَّ أَمَرَ بِلالاً أَنْ يُعْطِيَهُ أوقِيَّةً مِنْ فِضَّةٍ ، فَأَعْطاهُ بِلالٌ أوقِيَّةً وزادَهُ شَيْئًا .

يَقولُ جابرٌ : « فَبارَكَ اللهُ فيها ، وَيَسَّرَ لي في الرِّزْقِ ، فَقَضَيْتُ دَيْنَ أَبي ، وَكَفَلْتُ إخْوَتي . »

وَحينَ ابتُلِيَ الْمُؤْمِنونَ بالأَحْزاب ، وَجاءوهُمْ مِنْ كُلِّ مَكانٍ ، وَزُلْزِلوا زِلْزالاً عَظيمًا ، وَأَشارَ سَلْمانُ الفارسيُّ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ - كانَ لِجابرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ مَوْقِفٌ أَيَّ مَوْقِفٍ ، يُحَدِّثُ « جابر » عَنْهُ فَيَقولُ :

« كُنّا نَحْفِرُ الخَنْدَقَ فَعَرَضَتْ لَنا صَخْرَةٌ ضَخْمَةٌ ، لَمْ نَسْتَطِعْ لَها شَيْئًا ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ ضَرَباتُ مَعاوِلِنا أَنْ تَبْلُغَ

مِنْها مَبْلغًا ، فَشَكَوْنا أَمْرَها إلى رَسولِ اللهِ ﷺ ، فَقالَ : « أَنا نازِلٌ . » ثُمَّ نَهَضَ فَإِذا هُوَ يَعْصِبُ عَلى بَطْنِه حَجَرًا مِنْ شِدَّةِ الجوعِ ؛ فَقَدْ مَضى عَلَيْنا ثَلاثَةُ أَيّام لَمْ نَذُقْ فيها طَعامًا ، وَأَخَذَ رَسولُ اللهِ ﷺ المِعْوَلَ فَضَرَبَ الصَّخْرَةَ ضَرْبَةً واحِدَةً فَإِذا هِيَ رِمالٌ مُتَناثِرَةٌ .

« قُلْتُ : ‹‹ يا رَسولَ اللهِ ، ائْذَنْ أَنْ آتِيَ بَيْتي . ››

« وَأَسْرَعْتُ فَقُلْتُ لامْرَأَتي : ‹‹ رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا ، لَمْ أَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ، فَهَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ يَأْكُلُهُ ؟››

« قالَتْ : ‹‹ عِنْدي حَفْناتٌ مِنْ شَعيرٍ ، وَهَذِهِ الماعِزُ الصَّغيرَةُ الهَزيلَةُ . ››

« فَذَبَحْتُ الماعِزَ ، وَطَحَنْتُ الشَّعيرَ ، حَتّى جَعَلْنا اللَّحْمَ في القِدْرِ ، وَعَجَنّا الشَّعيرَ ، وَجَعَلْنا الخُبْزَ في التَّنّورِ ، ثُمَّ جِئْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ وَقَدْ كادَ كُلُّ شَيْءٍ يَنْضَجُ ، فَقُلْتُ : ‹‹ يا رَسولَ اللهِ ، طُعَيْمٌ لي ، فَقُمْ أَنْتَ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلانِ . ››

« قالَ : ‹‹ كَمْ هُوَ ؟››

« فَذَكَرْتُهُ لَهُ ، فَقالَ : كَثيرٌ طَيِّبٌ . قُلْ لامْرَأَتِكَ :
‹‹لا تَنْزِعِ غِطاءَ القِدْرِ ، وَلا تُخْرِجِ الخُبْزَ مِنَ التَّنّورِ حَتّى آتِيَكُمْ .››

« ثُمَّ قالَ لِجَميعِ مَنْ في الْخَنْدَقِ : ‹‹ قوموا إِلى طَعامِ أَخيكُمْ جابِرٍ .››

« فَلَقيتُ مِنَ الحَياءِ ما لا يَعْلَمُهُ إِلا اللهُ ، وَأَسْرَعْتُ إِلى امْرَأَتي فَقُلْتُ لَها : ‹‹ وَيْحَكِ ! لَقَدِ افْتَضَحْتُ ! جاءَكِ رَسولُ اللهِ ﷺ بِأَهْلِ الخَنْدَقِ أَجْمَعينَ .››

« قالَتْ : ‹‹ هَلْ كانَ سَأَلَكَ كَمْ طَعامُكَ ؟››

« قُلْتُ : ‹‹ نَعَمْ !››

« قالَتْ : ‹‹ اللهُ وَرَسولُهُ أَعْلَمُ !››

« فَكَشَفَتْ عَنّي بِقَوْلِها غَمّاً شَديداً ، وَفَرَّجَتْ عَنْ صَدْري كَرْبًا عَظيمًا ! ثُمّ دَخَلَ رَسولُ اللهِ ﷺ ، وَقالَ لِمَنْ مَعَهُ : ‹‹ اُدْخُلوا وَلا تَزاحِموا .››

« وَجَعَلَ ﷺ يَكْسِرُ الخُبْزَ ، وَيَصُبُّ عَلَيْهِ الْمَرَقَ ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ ، وَيُقَرِّبُ إِلى أَصْحابِهِ ، حَتّى شَبِعوا

جَميعًا ، وَ بَقِيَتْ بَقِيَّةٌ فَقالَ : ‹‹ كُلوا وَأَهْدوا فَإِنَّ النّاسَ قَدْ أَصابَتْهُمْ مَجاعَةٌ ! ››»

وَاشْتَكى جابر مِنْ وَجَع أَلَمَّ بِهِ ، وَسَعى الرَّسولُ ﷺ لِعيادَتِهِ ، فَقالَ لَهُ جابر : « يا رَسولَ اللهِ ، إِنَّ عِنْدي سَبْعَ أَخَواتٍ أَلا أوصي لَهُنَّ بِالثُّلُثَيْنِ مِنْ مالي ، فَلَيْسَ لي وَلَدٌ؟ »

فأَجابَهُ ﷺ : « حَسَنٌ . »

قالَ جابِر : « وبِالشَّطْرِ . » أي النِّصْف .

قالَ : « حَسَنٌ . »

ثُمَّ قالَ لَهُ الرَّسولُ ﷺ : « يا جابِرُ ، لا أَراكَ مَيِّتًا مِنْ وَجَعِكَ هَذا . »

وَخَرَجَ رَسولُ اللهِ ﷺ مِنْ عِنْدِهِ ، وَإِذا القُرْآنُ الكَريمُ يَنْزِلُ بِآيَةِ الكَلالَةِ ، أي الَّذي يَموتُ وَلَيْسَ لَهُ عَقِبٌ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى ، وَهِيَ آخِرُ آيَةٍ في سورَةِ النِّساءِ ، وَكانَ جابِر يَقولُ : « فِيَّ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ . »

وامْتَدَّ العُمْرُ بِجابر بْنِ عَبْدِ اللهِ ، فَعاشَ في خِلافَةِ أَبي

بَكْرٍ مِثالاً لِلْمُسْلِمِ الكامِلِ ، وَشارَكَ في حُروبِ الرِّدَّةِ الَّتي أَعادَتِ العَرَبَ إِلَى رِحابِ الإِسْلامِ ، وَعاشَ في خِلافَةِ عُمَرَ يُشارِكُهُ في الحَرْبِ وَفي السِّلْمِ . . يَقولُ جابر :

« رَأى عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَحْمًا مُعَلَّقًا في يَدي ، فَسَأَلَني : ‹‹ ما هَذا ، يا جابر ؟ ››

« فَقُلْتُ : ‹‹ لَحْمٌ اشْتَهَيْتُهُ فاشْتَرَيْتُهُ . ››

« فَقالَ : ‹‹ أَوَكُلَّما اشْتَهَيْتَ شَيْئًا اشْتَرَيْتَهُ ؟ أَما تَخافُ أَنْ يُقالَ لَكَ يَوْمَ القِيامَةِ ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ في حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها . ﴾ ›› »

وَمَضَتِ الحَياةُ بِجابرٍ مَعَ هَؤُلاءِ الأَبْرارِ ، حَتّى جَلَسَ في بَيْتِهِ يَتَذاكَرُ كِتابَ اللهِ ، وَيُذيعُ هَدْيَ رَسولِهِ بَيْنَ الْمُسْلِمينَ حَتّى لَحِقَ بِالرَّفيقِ الأَعْلى .

زَوْجَةُ الشُّهَداءِ
عاتِكَةُ بِنْتُ زَيْدٍ

مَنَحَها اللهُ جَمالاً رائِقًا ، وَحُسْنًا بارِعًا ، فَما وَقَعَ عَلَيْها بَصَرُ رَجُلٍ إلا تَمَنّاها زَوْجًا لَهُ ، يَسْكُنُ إِلَيْها قَلْبُهُ ، وَتَأنسُ إلى جِوارِها روحُهُ ، وَلَكِنَّها لَمْ تَكُنْ تُعيرُ جَمالَها اهْتِمامًا بالِغًا ، وَلَمْ يَكُنْ يَزْدَهيها ما تَراهُ في عُيونِ النّاظِرينَ ؛ فَقَدْ كانَتْ تَعْرِفُ أُصولَ دينِها وَمَبادِئَهُ ، وَكانَتْ تَحْرِصُ عَلى رِضاءِ رَبِّها وَمَحَبَّتِهِ ، ذَلِكَ أَنَّها كانَتْ مِنَ السّابِقاتِ إِلى الإِسْلامِ ، وَمِنَ الْمُهاجِراتِ الأَوائِلِ إِلى الْمَدينَةِ . وَكانَتْ ذاتَ قُوَّةٍ وَحَزْمٍ ، وَرَأْيٍ وَعَزْمٍ ، وَأَدَبٍ جَمٍّ ، كَما كانَتْ شاعِرَةً ، يَأْخُذُ شِعْرُها بالقُلوبِ ، وَيَلَذُّ العُقولَ ، وَإِنْ كانَتْ لا تَقولُهُ إلا في مُناسَبَةٍ تَسْتَثيرُها ، وَتَسْتَجيشُ عَواطِفَها ، وَتَطْبَعُهُ بِطابَعِ الإيمانِ الَّذي يَعْمُرُ قَلْبَها ، وَيَنْطَبِعُ بِهِ سُلوكُها .

كانَ أوَّلَ مَنْ تَقَدَّمَ لَها زَوْجًا « عبد الله بْنُ أبي بَكْر » الَّذي كانَ لَهُ دَوْرٌ رائِعٌ في هِجْرَةِ الرَّسول ﷺ وَأبيهِ إلى الْمَدينَةِ ، وَقَدْ هامَ بها ، وَهامَتْ به ، حَتّى إنَّهُ قَعَدَ في بَيْتِهِ إلى جوارِها ، وَلَمْ يُباشِرْ تِجارَتَهُ فَكَسَدَتْ ، وَكَأنَّما عَزَّ عَلَيْهِ أَنْ يُفارِقَها لَحَظاتٍ فَكانَ لا يَكادُ يَخْرُجُ إلا لِصَلاةِ الجُمْعَةِ . وَانْزَعَجَ أَبوهُ - أبو بَكْرٍ الصِّدّيق - لِذَلكَ انْزِعاجًا شَديدًا ، وَهالَهُ أَنْ يَلْزَمَ ابْنُهُ بَيْتَهُ لا يَبْرَحُهُ ، وَأَنْ يُهْمِلَ مَعاشَهُ وَصَلاتَهُ هَذا الإهْمالَ الشَّديدَ ، خاصَّةً وَقَدْ تَمَهَّلَ عَلَيْهِ حَتّى يَرْتَوِيَ وَيَشْبَعَ مِنْ قُرْبِ زَوْجَتِهِ الْجَميلَةِ الآسِرَةِ ، وَآنَ لَهُ أَنْ يَصْحُوَ وَيُفيقَ ، وَيَنْظُرَ في أَمْرِهِ نَظْرَةً خالِصَةً ، وَيَجْتَهِدَ في أمْرِ دينِهِ وَ مَعاشِهِ .

حينَئِذٍ اسْتَبَدَّ الحُزْنُ بِأبي بَكْرٍ عَلى وَلَدِهِ ، فَمَضى إلى دارِهِ ، وَاصْطَحَبَهُ خارِجَها ، وَعَنَّفَهُ عَلى ما بَدا مِنْهُ مِنْ إهْمال ، وَلامَهُ عَلى تَرْكِهِ صَلاةَ الْجَماعَةِ ، وَإيثارَهُ البَقاءَ في البَيْتِ بِجوارِ زَوْجَتِهِ ، الَّتي شَغَلَتْهُ هَذا الشُّغْلَ الْقَوِيَّ ، الَّذي يَكادُ يَفْتِكُ بِهِ فَتْكًا ذَريعًا ، وَيَقْذِفُ بِهِ إلى مَهاوي الْمَعْوِزينَ البائِسينَ . . !

وَلَمْ يَرُدَّ « عَبْد الله » عَلى أبيهِ قَوْلَهُ ، وَلَمْ يَجِدْ ما يَدْفَعُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ ، وَلا ما يُبَرِّرُ بِهِ هَذا الإهْمالَ الَّذي يُعايِشُهُ وَيَعْبَثُ بِهِ عَبَثًا فَريدًا . . وَلَمّا لَمْ يَسْمَعْ أبو بكر رَدًّا مِنِ ابْنِهِ وَ لا تَبْريرًا قالَ لَهُ : « طَلِّقْ هَذِهِ الَّتي شَغَلَتْكَ عَنِ الْمَعاشِ وَالتِّجارَةِ ، وَأَبْعَدَتْكَ عَنْ صَلاةِ الْجَماعَةِ . »

وَانْصَرَفَ أبو بَكْر ، وَتَرَكَ ابْنَهُ « عبد الله » يُفَكِّرُ فيما أمَرَهُ بِهِ أَبوهُ ، وَفيما آلَتْ إِلَيْهِ حالُهُ ، مِنْ تجارَةٍ قَدْ بارَتْ ، وَبَقاءٍ في البَيْتِ لا يَبْرَحُهُ ، وَصَلاةِ الجَماعَةِ الَّتي نَأى عَنْها . . وَلَكِنْ كَيْفَ يُطَلِّقُ سَكَنَ نَفْسِهِ ، وَطُمَأنينَةَ خاطِرِهِ ، وَهَوى قَلْبِهِ ؟ وَ هَلْ تَسْتَطيعُ نَفْسُهُ أَنْ تَهْدَأَ وَتَسْكُنَ بَعْدَ أَنْ يُفارِقَها جُزْءٌ مِنْها ؟ وَ كَيْفَ تَسْكُنُ نَفْسٌ مُتَشَعِّبَةٌ ذاتُ انْقِسام ؟ لَكِنْ لأبيهِ حَقٌّ في قَوْلِهِ وَأَمْرِهِ ، وَفي تَعْنيفِهِ وَلَوْمِهِ !

وَعادَ « عَبْد اللهِ » إلى بَيْتِهِ ، وَ عَرَفَتْ « عاتِكَة » ما أَمَرَهُ بِهِ أَبوهُ ، فَقالَتْ لَهُ : « عَلَيْكَ أَنْ تَصْدَعَ لأَمْرِ أَبيكَ ، وَلَكِنْ فَلْيَعْلَمْ أَبوكَ أَنّي ما شَغَلْتُكَ عَنْ تِجارَةٍ ، وَلا أَبْعَدْتُكَ عَنْ صَلاةِ الجماعَةِ ، وَكُنْتُ أَحُثُّكَ عَلَيْهِما ،

وَأحُضُّكَ عَلى السَّعْيِ لِتَحْصيلِ الْمعاشِ ، وَتَأمينِ مُسْتَقْبَلِكَ في الآخِرَةِ . »

فارَقَ « عَبْد الله » زَوْجَتَهُ « عاتِكة » وَهُوَ كارِهٌ لِفِراقِها ، وَابْتَعَدَتْ عَنْهُ وَهُوَ بابْتِعادِها ضائِقٌ ، وَلَمْ تَكُنْ هِيَ أَقَلَّ مِنْهُ كُرْهًا وَلا ضيقًا ، وَلَكِنَّها لَمْ تَرْغَبْ أَنْ تَعيشَ مَعَهُ رَغْمَ أنفِ أبيهِ ، كَما لَمْ تَرْغَبْ أَنْ يُقالَ عَنْها إنَّها سَبَبُ بَوارِ تِجارَتِهِ ، وَضَعْفِ دينِهِ ، وَهِيَ الْمُؤْمِنَةُ الْمُهاجِرَةُ ، الفَقيهَةُ الشّاعِرَةُ .

ساءَ حالُ « عبد اللَّه » سوءًا بالِغًا ، فَقَدْ شَحَبَ لَوْنُهُ ، وَهُزِلَ جِسْمُهُ ، وَبَدا عَلَيْهِ الضَّعْفُ وَالإرْهاقُ ، فَلَمْ يَنْشَطْ إلى تِجارَةٍ ، وَلَمْ يَحْرِصْ عَلى صَلاةِ الْجَماعَةِ ، وَشَعَرَ أَبوهُ أَنَّهُ قَدْ ظَلَمَ ابْنَهُ ، وَحَزَّ في نَفْسِهِ أَنْ يَرى ما أَصابَهُ مِنْ ذُبولٍ وَ ذُهولٍ ، فَأَدْناهُ مِنْهُ ، وَأَجْلَسَهُ إلى جانِبِهِ ، وَطَفِقَ يُحَدِّثُهُ حَديثَ الْوالِدِ الشَّفوقِ ، وَالأَبِ العَطوفِ ، ثُمَّ قالَ لَهُ : « أَعِدْ عاتِكَةَ إلَيْكَ ، عَلى ألا تَشْغَلَكَ عَنْ مَعاشِكَ وَمَعادِكَ ، وَجِهادِكَ . »

سُرَّ « عبد الله » سُرورًا بالِغًا ، وَبَرَقَتْ أَساريرُ وَجْهِهِ ،

وَزايلَهُ ما كانَ يُثْقِلُهُ مِنْ إرْهاقٍ ، وَسَرَى الدَّمُ في عُروقِهِ ، وَدَبَّ نَشاطٌ في جِسْمِهِ ، وَخَرَجَ مِنْ مَجْلِسِ والِدِهِ مَحْبورَ النَّفْسِ ، سَعيدًا ، وَطارَ يَزُفُّ البُشْرى إلى عاتِكَة ، الَّتي بادَلَتْهُ سُرورًا بِسُرورٍ ، وَحُبورًا بِحُبورٍ ، وَعادَتِ الفَرْحَةُ تَمْلأُ جَوانِحَهُما ، وَافْتَرشَتِ البَسْمَةُ شِفاهَهُما .

وَاشْتَرَطَتْ عَلَيْهِ « عاتكة » أنْ يَبْذُلَ جُهْدَهُ في العَمَلِ وَتَحْصيلِ الْمعاشِ ، وَألا يَدَّخِرَ جُهْدًا في الجِهادِ في سَبيلِ إعْلاءِ دينِ اللهِ ، وَأَنْ يَحْرِصَ عَلى صَلاةِ الْجَماعَةِ .

وَعاشَ « عَبْد اللَّه » مَعَ زَوْجَتِهِ « عاتِكَة بِنْت زَيْد » ، لَمْ يُهْمِلْ عَمَلاً ، وَلَمْ يَفْتُرْ عَنْ صَلاةٍ ، حَتَّى دَعا داعي الجِهادِ ، فَخَرَجَ إلى الطَّائِفِ مُجاهِدًا ، فَاسْتُشْهِدَ في سَبيلِ اللهِ . وَبَكَتْهُ « عاتِكَة » بُكاءً مُرّا ، وَأَنْشَأَتْ في رِثائِهِ شِعْرًا يَقْطُرُ حُبّا وَإخْلاصًا ، وَ يُفيضُ أَسًى وَلَوْعَةً ، فَأَثَّرَ في [illegible] النّاسِ ، [illegible] بها ، وَأَجَلّوا حُبَّها وَصِدْقَها .

وَعَزَفَتْ نَفْسُ «عاتِكَة » عَنِ الزَّواجِ بَعْدَ هَذا الزَّوْجِ الْمُحِبِّ الشَّهيدِ ، وَظَلَّتْ ثَلاثَ سَنَواتٍ كامِلَةٍ تَسْتَعيدُ

ذِكْراهُ ، وتَمْتَنِعُ عَلى مَنْ يَتَقَدَّمُ إلَيْها راغِبًا في الزَّواجِ مِنْها ، حَتّى تَقَدَّمَ لَها ابْنُ عَمِّها « عُمَرُ بْنُ الخَطّاب » فَلَمْ تَجِدْ عُذْرًا تَعْتَذِرُ بِهِ ، ولَمْ تَجِدْ مُسَوِّغًا تَرْفُضُ بِهِ خِطْبَتَهُ ، فَتَزَوَّجَتْهُ وَهِيَ تَعْلَمُ رَحْمَتَهُ وَشِدَّتَهُ ، وَعَزِيمَتَهُ وَهِمَّتَهُ ، وَكانَتْ هِيَ الَّتي اشْتَهَتِ الحَلْوى فَأبى « عُمَر » أَميرُ الْمُؤْمِنينَ شِراءَها ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مِنَ الْمالِ ما يُنْفِقُهُ في ذَلِكَ ، فَادَّخَرَتْ مِنْ نَفَقَةِ بَيْتِها ما اشْتَرَتْ بِهِ الْحَلْوى ، فَما كانَ مِنَ الفاروقِ عُمَرَ إلا أَنْ أَنْقَصَ ثَمَنَ الْحَلْوى مِنْ نَفَقَةِ الْبَيْتِ ، مُعْلِنًا : أَنَّ ما زادَ عَنْ قوتِنا فَالْمُسْلِمونَ أَوْلَى بِهِ ، وَأَمَرَها بِرَدِّهِ إلى بَيْتِ مالِ الْمُسْلِمينَ .

وَقُدِّرَ لِلْفاروقِ عُمَرَ أَنْ يَحْظَى بِالشَّهادَةِ حينَما طَعَنَهُ أبو لُؤْلُؤَةَ الْمَجوسِيّ . وَحَزِنَتْ عَلَيْهِ « عاتِكَة » حُزْنًا شَديدًا ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فَقيدَها وَحْدَها ، وَإِنَّما كانَ فَقيدَ الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ ! وَظَهَرَ أَثَرُ هَذا الْحُزْنِ الْقَوِيِّ في شِعْرِها الَّذي رَثَتْهُ بِهِ ، فَأَبْكَى مَنِ اسْتَمَعوا إلَيْهِ .

وَشاءَتْ إرادَةُ اللهِ لَها أَنْ تَتَزَوَّجَ مِنْ بَعْدِ الفاروقِ عُمَر ،

« محمدَ بْن أبي بَكْر » وَلَكِنَّ زَواجَها مِنْهُ لَمْ يُعَمِّرْ طَويلاً ، إذْ وافَتْهُ الْمَنِيَّةُ عَلى أيْدي الثّائِرينَ في مِصْرَ .

ثُمَّ تزَوَّجَتْ مِنْ بَعْدِهِ « الزُّبَيْر بْنَ العَوّام » وَكانَ زَوْجًا لأسْماءَ بِنْتِ أبي بَكْر ، وَكانَ الزُّبَيْرُ رَجُلاً غَيورًا ، فَأرادَ أَنْ يَحولَ بَيْنَها وَبَيْنَ الذَّهابِ إلى الْمَسْجِدِ ، وَلَكِنَّها رَدَّتْهُ رَدًّا حَسَنًا ، وَلَطَّفَتْ مِنْ غَيْرَتِهِ وحِدَّتِهِ ، وَذَكَّرَتْهُ بحَديثِ رَسولِ اللهِ ﷺ « لا تَمْنَعوا إماءَ اللهِ مَساجِدَ اللهِ، وَلَكِنْ لِيَخْرُجْنَ تَفِلاتٍ . » أيْ غَيْر مُتَعَطِّراتٍ ، فَثابَ رُشْدُهُ إلَيْهِ ، أَوْ ثابَ هُوَ إلى رُشْدِهِ ، وَأَذِنَ لَها في الْخُروجِ إلى الْمَسْجِدِ .

ثُمَّ خَرَجَ الزُّبَيْرُ إلى القِتالِ في مَعْرَكَةِ « الجَمل » وَلَكِنَّهُ أَحَسَّ بِالْخَطَأ في هَذا الْمَوْقِفِ ، فَآثَرَ الانْسِحابَ مِنَ الْمَعْرَكَةِ ، وَاعْتِزالَ الفِتْنَةِ ، فَتَبِعَهُ رَجُلانِ ، وَقَتَلَهُ « عمرو ابْنُ جرموز » ، وَأَنْشَدَتْ في ذَلِكَ شِعْرًا تَبْكيهِ بُكاءً حارًّا ، وَتَلْعَنُ قاتِلَهُ ، الَّذي لَمْ يَرْعَ فيهِ ذِمَّةً وَ لا حُرْمَةً .

وَهَمَّ « عَلِيّ بْنُ أبي طالب » أَنْ يَتزَوَّجَها ، فَأَرْسَلَ إِلَيْها مَنْ يَخْطُبُها لَهُ ، وَكانَ الرِّجالُ قَدْ عَزَفوا عَنِ الزَّواجِ مِنْها ، فَقالَتْ لَهُ : « إِنَّني أَضَنُّ ، بِكَ يا بْنَ عَمٍّ عَلى الشَّهادَةِ . »

فَاحْتَرَمَ قرارَها ، وَمَعَ ذَلِكَ نالَ الشَّهادَةَ ، حَيْثُ قَتَلَهُ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُلْجَم » أَحَدُ الْخَوارِجِ .

وَلَمْ يَمْضِ طَويلُ وَقْتٍ حَتّى تَقَدَّمَ لِخُطْبَتِها رَجُلانِ عَظيمانِ : مُعاوِيَة بْن أبي سُفْيان ، وَالْحُسَيْن بْن عَليّ ، فَلَمْ تَشَأْ أَنْ تُمْضِيَ رَأْيًا ، وَلا أَنْ تَتَّخِذَ قرارًا ، حَتّى تَسْتَشيرَ في أَمْرِها ، فَكِلا الرَّجُلَيْنِ مَرْموقُ الْمَكانَةِ ، عَظيمُ الْمَنْزِلَةِ . وَ وَقَعَ اخْتِيارُها عَلى الصَّحابِيِّ الجَليلِ « أبو الدَّرْداء » (١) فَقالَ لَها مُشيرًا عَلَيْها :

« إِنْ أَرَدْتِ أَنْ تَضَعي شَفَتَيْكِ مَوْضِعَ شَفَتَيْ رَسولِ اللهِ ﷺ فَتَزَوَّجي الْحُسَيْنَ بْنَ عَليّ ، فَوَ اللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يُقَبِّلُهُ . »

وَعَمِلَتْ بِمَشورَةِ « أبو الدَّرْداء » ، وَتَزَوَّجَتِ « الْحُسَيْن

---

(١) انظر سيرته في كتابنا « أمين الأمة » من هذه السلسلة .

ابْنَ عليٍّ » وكانَتْ مَعَهُ في « كَرْبلاء » حَيْثُ دارَتْ تِلْكَ الْمَعْرَكَةُ الْمُشْئومَةُ بَيْنَ الْمُسْلِميْنَ ، وقُتِلَ فيها « الحُسَيْن » وَحَظِيَ بالشَّهادَةِ .

وَخَيَّرَ « يزيد بْنُ مُعاوِيَة » السَّيِّدَةَ « زينب بنْت عَلِيٍّ » في أَنْ تَرْحَلَ وَمَنْ مَعَها مِنْ آلِ بَيْتِ النَّبيِّ ﷺ إلى البَلَد الَّذي يُحِبّونَهُ ، فآثَروا الرَّحيلَ إلى مِصْرَ ، وَلَما سُئِلَتْ عَنْ ذَلِكَ قالَتْ : « إنَّ اللَّهَ قالَ فيها (اُدْخُلوا مِصْرَ إنْ شاءَ اللهُ آمِنين .) »

وَكانَتْ « عاتِكَة بنْت زَيْد » مِنْ بَيْنِ الرَّاحِلينَ إلى مِصْرَ، وَعَرَضَ عَلَيْها كَثيرونَ الزَّواجَ ، وَقَدْ كانَ جَمالُها يَزْدادُ مَعَ الأَيّام تَوَهُّجًا ، وَكَأَنَّ الْحُزْنَ أَكْسَبَهُ جَلالاً وَبَهاءً ، وَلَكِنَّها صَدَفَتْ عَنِ الزَّواجِ ، وَصَدَّتِ الرّاغِبينَ، وَعاشَتْ بَقِيَّةَ عُمْرِها وَفِيَّةً لِذِكْرى الْحُسَيْن ، راثِيَةً لَهُ بِشِعْرٍ يَتَقَطَّرُ أَسًى وَلَوْعَةً ، حَتّى لَقِيَتْ بارِئَها ، فَسَعِدَتْ بِها أَرْضُ مِصْرَ ، حَيْثُ دُفِنَتْ في ثَراها !

مُرَوِّعُ الفُرْسِ
المُثَنَّى بْنُ حارِثَةَ الشَّيْبانيّ

في السَّنَةِ التّاسِعَةِ مِنَ الهِجْرَةِ وَفَدَ الْمُثَنّى مَعَ قَوْمِهِ مِنْ بَني شَيْبانَ إلى المدينَةِ المُنَوَّرَةِ ، وأَعْلَنوا بَيْنَ يَدَي الرَّسولِ الكَريمِ إسْلامَهُمْ . وَكانَ المُثَنّى فارسًا مِغْوارًا ، وَشُجاعًا مِقْدامًا ، يَعْرِفُ لَهُ قَوْمُهُ بَسالَتَهُ وَشَهامَتَهُ ، وَعِزَّةَ نَفْسِهِ وَإباءَها . وَكانَتْ مَساكِنُهُمْ عَلى مَشارِفِ الصَّحْراءِ المُتاخِمَةِ لِسَوادِ العِراقِ ، أَيْ لِريفِهِ وَقُراهُ الَّتي تَقَعُ ما بَيْنَ البَصْرَةِ وَالكوفَةِ ، وَكانَتِ العِراقُ تَخْضَعُ لِلدَّوْلَةِ الفارِسِيَّةِ ، إحْدى الدَّوْلَتَيْنِ العُظْمَيَيْنِ في ذَلِكَ الحينِ ، والأُخْرى هِيَ الرّومُ .

عادَ المُثَنّى إلى مَساكِنِ قَوْمِهِ ، وَفي نَفْسِهِ أَمَلٌ يُراوِدُهُ ،

وَأُمْنِيَّةٌ تتراءى لَهُ ، وَهِيَ أَنْ يُحَرِّرَ عَرَبَ العِراقِ مِنْ سَيْطَرَةِ الفُرْسِ ، وَيَفُكَّ الأَغْلالَ الَّتي تُقَيِّدُ عُقولَهُمْ وَقُلوبَهُمْ ، ويَدْعُوَهُمْ إلى الخَيْرِ الَّذي آمَنَ بِهِ . والْتَفَّ بَعْضُ فُرْسانِ قَوْمِهِ حَوْلَهُ ، ورَغِبوا فيما رَغِبَ فيه ، وطَمَحَتْ نُفوسُهُمْ إلى ما طَمَحَ إلَيْهِ ، وراحَ يُناوِشُ بِهِمُ الفُرْسَ ، وفي كُلِّ غارَةٍ يُرَوِّعُ الفُرْسَ تَرْويعًا شَديدًا ويُصيبُ مِنْهُمْ مَغْنَمًا كَثيرًا ، حَتّى أَثارَ الاضْطِرابَ بَيْنَ أَهْلِ القُرى العِراقِيَّةِ ، وَنَشَرَ الرُّعْبَ في صُفوفِهِمْ .

وكانَ الرَّسولُ ﷺ قَدِ انْتَقَلَ إلى الرَّفيقِ الأَعْلى ، و وَلِيَ أَبو بَكْرٍ رضي الله عنه الخِلافَةَ ، وبَلَغَتْهُ أَخْبارُ الْمُثَنّى ، وأَنْباءُ تَرْويعِهِ الفُرْسَ ، وإِثارَةِ الجُرْأَةِ عَلَيْهِمْ في نُفوسِ العَرَبِ ، بَعْدَ أَنْ كانوا يَحْسَبونَ لَهُمْ حِسابًا عَظيمًا ، ويُقيمونَ لَهُمْ وَزْنًا كَبيرًا .

سَأَلَ أَبو بَكْرٍ مَنْ حَوْلَهُ : « مَنْ هَذا الَّذي تَأْتينا وَقائِعُهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَنا نَسَبُهُ ؟ »

أَجابَهُ قَيْسُ بْنُ عاصِمٍ : « أَما إِنَّهُ غَيْرُ خامِلِ الذِّكْرِ ،

ولا مَجْهولِ النَّسَبِ ، ولا قَليلِ العَدَدِ ، ولا ذَليلِ الغارَةِ . ذَلِكَ الْمُثَنّى بْنُ حارِثَةَ الشَّيْبانيّ . »

فاسْتَدعاهُ أَبو بَكْرٍ ، وأَدْناهُ إِلَيْهِ ، وأَبْدَى لَهُ إِعْجابَهُ بِشَجاعَتِهِ وجُرْأَتِهِ ؛ إِذْ هُوَ أَوَّلُ مَنِ اجْتَرَأَ عَلى الفُرْسِ مِنَ الْمُسْلِمينَ ، وأَمَّرَهُ عَلى قَوْمِهِ ، فَقالَ لَهُ الْمُثَنّى :

« يا خَليفَةَ رَسولِ اللهِ ، سَأَكْفيكَ ناحِيَتي بِعَوْنِ اللهِ . »

وعادَ الْمُثَنّى ، وقَدْ عَقَدَ أَبو بَكْرٍ لَهُ اللِّواءَ ، فَدَعا قَوْمَهُ إلى الجِهادِ ، فاسْتَجابوا لَهُ ، وكَوَّنَ مِنْهُمْ جَيْشًا ، أَخَذَ يُغيرُ عَلى الفُرْسِ ، ويَفْعَلُ بِهِمُ الأَفاعيلَ ، ويُثيرُ الفَزَعَ في قُلوبِهِمْ ، والخَوْفَ في صُدورِهِمْ ، حَتّى باتَ أَهْلُ السَّوادِ لا يَأْمَنونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وأَمْوالِهِمْ ، ويَوَدّونَ لَوِ افْتَدَوْها مِنَ المُثَنى بِما يُريدُ . وما كانَ الْمُثَنّى يُريدُ لَهُمْ إلا الحُرِّيَّةَ الَّتي تَعْتِقُ رِقابَهُمْ ، وتُنيرُ قُلوبَهُمْ وعُقولَهُمْ ، فَتَخْتارَ الدّينَ الَّذي يَتَّسِقُ مَعَ الفِطْرَةِ الَّتي خَلَقَهُمُ اللهُ

عَلَيْها .

وحينَ عَقَدَ أَبو بَكْرٍ لِواءَ فَتْحِ العِراقِ لِخالِدِ بْنِ الوَليدِ ضَمَّ إِلَيْهِ الْمُثَنّى ، وكَتَبَ خالِدٌ إلى الْمُثَنّى يَدْعوهُ لِلِقائِهِ في الأُبُلَّةِ ، وهِيَ مَوْقِعٌ قُرْبَ البَصْرَةِ مِنْ جانِبِها الشَّمالِيِّ ، ومُنْذُ التِقائِهِما أَصْبَحَ الْمُثَنّى الذِّراعَ اليُمْنى لِخالِدٍ ، يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ في الْمُلِمّاتِ ، ويَنْتَدِبُهُ لِيَنوبَ عَنْهُ في أَخْطَرِ الْمُهِمّاتِ ، وأَحْوَجِها إلى الفِطْنَةِ والدَّهاءِ ، ويَجْعَلُهُ عَلى مُقَدِّمَةِ الجَيْشِ ، ويَسْتَضيءُ بِرَأْيِهِ في الخُطَطِ الحَرْبِيَّةِ ، وكَثيرًا ما يَرْكَنُ إِلَيْهِ ، على الرَّغْمِ مِنْ شِدَّةِ حِرْصِهِ ، وكَثْرَةِ حَذَرِهِ .

وفي السَّنَةِ الثّالِثَةَ عَشْرَةَ مِنَ الهِجْرَةِ كَتَبَ أُمَراءُ الأَجْنادِ في الشّامِ إلى أبي بَكْرٍ ، يُخْبِرونَهُ بِتَجَمُّعِ الرّومِ واحْتِشادِ قُواهُمُ الضَّخْمَةِ في اليَرْموكِ ، ويَطْلُبونَ مِنْهُ النَّجْدَةَ العاجِلَةَ - فَأَرْسَلَ أَبو بَكْرٍ إلى خالِدٍ يَأْمُرُهُ بِالمسيرِ إلى الشّامِ لِنَجْدَةِ الْمُسْلِمينَ ، وأَنْ يَسْتَخْلِفَ عَلى البَقِيَّةِ الباقِيَةِ مِنْ جُنْدِهِ في العِراقِ الْمُثَنّى بْنَ حارِثَةَ .

وما إنْ فارَقَ خالِدٌ العِراقَ حَتّى أَعَدَّ الفُرْسُ جَيْشًا ضَخْمًا لِمُلاقاةِ جَيْشِ الْمُسْلِمينَ الْمُرابطِ في أَرْضِ العِراقِ لِدَحْرِهِ والقَضاءِ عَلَيْهِ ، وأَطْمَعَتْهُمْ قِلَّةُ عَدَدِهِ وعَتادِهِ في التَّغَلُّبِ عَلَيْهِ ، وجَعَلوا إمارَةَ هَذا الجَيْشِ الضَّخْمِ لِقائِدٍ ماهِرٍ مِنْ قُوّادِهِمْ ، هُوَ « هرمز جاذَويه » ، وسَيَّروا مَعَ الجَيْشِ فيلاً قَوِيًّا مُدَرَّبًا عَلى خَوْضِ المعارِكِ الحَرْبِيَّةِ .

عَلِمَ الْمُثَنّى بِذَلِكَ مِنَ العُيونِ الَّتي كانَتْ مُنْتَشِرَةً في أَرْضِ العِراقِ ، تَرْصُدُ أَخْبارَ جَيْشِ الفُرْسِ ، وتَتَعَرَّفُ مَواقِعَهُ ، وتَنْقُلُ الأَخْبارَ إلى القائِدِ ، فَأَخَذَ يَجْمَعُ الكَتائِبَ الْمُتَفَرِّقَةَ في القُرى والثُّغورِ ، ويَضُمُّ أَطْرافَ الجَيْشِ ، واتَّخَذَ الأُهْبَةَ لِمُلاقاةِ جَيْشِ الفُرْسِ .

وفي هَذِهِ الأَثْناءِ جاءَهُ كِتابٌ مِنْ مَلِكِ الفُرْسِ ، يَقولُ فيهِ :

« مِنْ شَهْربراز إلى الْمُثَنّى :

إِنّي قَدْ بَعَثْتُ لَكَ جُنْدًا مِنْ وَحْشِ أَهْلِ فارِس ، إِنَّما

هُمْ رُعاةُ الدَّجاجِ والخَنازيرِ ، ولَسْتُ أُقاتِلُكَ إلا بِهِمْ !»
فَأَجابَهُ الْمُثَنّى بِقَوْلِهِ :

« مِنَ الْمُثَنّى إلى شَهْربراز :

« إنَّما أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ : إمّا باغٍ ، فَذَلِكَ شَرٌّ لَكَ وخَيْرٌ لَنا ، وإمّا كاذِبٌ ، فَأَعْظَمُ الكَذّابينَ عُقوبَةً وفَضيحَةً عِنْدَ اللهِ والنّاسِ الْمُلوكُ . وأَمّا الَّذي يَدُلُّنا عَلَيْهِ الرَّأْيُ فَإِنَّكُمْ اضْطُرِرْتُمْ إلى هَؤُلاءِ الرُّعاةِ اضْطِرارًا ، والحَمْدُ للهِ الَّذي رَدَّ كَيْدَكُمْ إلى رُعاةِ الدَّجاجِ والخَنازيرِ !»

ولَمّا اطَّلَعَتْ حاشِيَةُ مَلِكِ الفُرْسِ وبِطانَتُهُ عَلى جَوابِ الْمُثَنّى - جَزِعَتْ مِنْهُ ، وأَدْرَكَتْ مَدى ما فيهِ مِنْ تَهَكُّمٍ واسْتِهْزاءٍ بِمَلِكِ الفُرْسِ ، وقالوا لَهُ :

« لَقَدْ جَرَّأْتَ عَلَيْنا عَدُوَّنا ، وإذا كَتَبْتَ في مِثْلِ هَذا الْمَقامِ مَرَّةً أُخْرى فَعَلَيْكَ أَنْ تَسْتَشيرَنا . »

والْتَقى الجَيْشانِ في مَعْرَكَةٍ ضارِيَةٍ : جَيْشُ الفُرْسِ تُغْريهِ كَثْرَةُ عَدَدِهِ ، وضَخامَةُ عَتادِهِ ، والفيلُ القَوِيُّ

الضَّخْمُ الَّذي يُوقعُ بخَيْلِ الْمُسْلمينَ ، وَيَنْكي بها نِكايَةً بالِغَةً ، فَتَجْمَحُ وتَنْفِرُ ، وَقَدْ تُلْقي مَنْ عَلَيْها مِنَ الفُرْسانِ . وجَيْشُ الْمُسْلِمينَ الَّذي يَثِقُ في نَصْرِ رَبِّهِ ، ويُوقِنُ أَنَّهُ لا يَنْتَصِرُ بِكَثْرَةِ العَدَدِ والعَتَادِ ، وإنَّما بالإيمانِ الَّذي يُعَمِّرُ القُلوبَ ، وبِالرَّغْبَةِ فيما عِنْدَ اللهِ مِنَ الشَّهادَةِ، والحِرْصِ عَلَيْها لا عَلى الحَياةِ .

ورَأى الْمُثَنّى ما يَفْعَلُهُ الفيلُ القَويُّ الضَّخْمُ بِخَيْلِ . . الْمُسْلِمينَ ، وما يَتَرَتَّبُ عَلى ذَلِكَ مِنَ الخَلَلِ في الصُّفوفِ، وتَفْويتِ الفُرَصِ عَلى الْمُجاهِدينَ - فَعَمَدَ هُوَ وجَماعَةٌ اخْتارَهُمْ مِنْ جُنودِهِ ، وَشَدّوا عَلى الفيلِ فَقَتَلوهُ . وما إنْ قُتِلَ الفيلُ حَتّى شَعَرَ جُنودُ الفُرْسِ أَنَّهُمْ قَدْ خَسِروا المعْرَكَةَ ، وفَتَّ ذَلِكَ في عَضُدِهِمْ ، وضَعُفَتْ رُوحُهُمُ المعْنَوِيَّةُ ؛ إذْ أَدْرَكوا أَنَّ عامِلَ الكَسْبِ قَدْ أَفْلَتَ مِنْ بَيْنِ أَيْديهِمْ . واغْتَنَمَ الْمُسْلِمونَ فُرْصَةَ البَلْبَلَةِ الَّتي سَرَتْ بَيْنَ جُنودِ الفُرْسِ ، والاضْطِرابِ النَّفْسِيِّ الَّذي أَصابَهُمْ - فَحَمَلوا حَمْلَةً صادِقَةً عَلَيْهِمْ ، فَأَزاحوهُمْ عَنْ أماكِنِهِمْ ،

وغَلَبوهُمْ عَلى أَمْرِهِمْ ، وهَزَموهُمْ هَزيمةً ساحِقَةً مُنْكَرَةً . . لَقَدْ وَلّى الفُرْسُ الأَدْبارَ ، ورَكِبَ الْمُسْلِمونَ أَكْتافَهُمْ، يَقْتُلونَ ويَأسِرونَ !

مِنْ خِلالِ هَذِهِ المعْرَكَةِ نَبَتَتْ في ذِهْنِ الْمُثَنّى فِكْرَةٌ ، ما إنِ انْتَهَتِ المَعْرَكَةُ حَتّى كانَتْ هَذِهِ الفِكْرَةُ قَد اسْتَوْلَتْ على ذِهْنِهِ ، واسْتَبَدَّتْ بِهِ اسْتِبْدادًا قَويًا ، فَآثَرَ أَنْ يَسْعى إلى الخَليفَةِ أَبي بَكْرٍ في المدينَةِ لِيَعْرِضَها عَلَيْهِ ، ولَعَلَّ اللَّهَ يَشْرَحُ صَدْرَهُ لَها فَيَقْبَلَها .

لَقَدْ مَنَعَ أَبو بَكْرٍ العَرَبَ الَّذينَ عادوا إلى الإسْلام بَعْدَ رِدَّتِهِمْ مِنْ شَرَفِ الجِهادِ ؛ تَرَفُّعًا عَنِ الاسْتِعانَةِ بِمَنْ كَفَرَ باللهِ عَلى جِهادِ أَعْدائِهِ ، وأَحَسَّ الْمُثَنّى مَدى الخَسارَةِ الَّتي تَتَعَرَّضُ لَها القُوَّةُ العَرَبِيَّةُ الإسْلامِيَّةُ مِنْ جَرّاءِ هَذا القَرارِ ؛ إذْ إنَّهُ يَنْطَبِقُ عَلى عَشَراتِ الأُلوفِ مِنَ القادِرينَ عَلى حَمْلِ السِّلاحِ ، ورَأى أَنَّ الجَيْشَ الإسْلامِيَّ في أَمَسِّ الحاجَةِ إلى هَؤُلاءِ ، خاصَّةً بَعْدَ فَتْحِ هَذِهِ الميادينِ الحَرْبِيَّةِ الجَديدَةِ في أَرْضِ فارِس وأَرْضِ الرّومِ ، وهِيَ بِلادٌ غَنِيَّةٌ

بالرِّجالِ والمالِ والعَتادِ، فَكَيْفَ يَسْتَقيمُ الأَمْرُ ونِصْفُ القادِرينَ عَلى حَمْلِ السِّلاحِ مَحْرومٌ مِنَ الجِهادِ ؟

لَقَدْ سَعى إلى الخَليفَةِ أَبي بَكْرٍ لِيَعْرِضَ عَلَيْهِ فِكْرَةَ الاسْتِعانَةِ بِهؤُلاءِ الَّذينَ ظَهَرَتْ تَوْبَتُهُمْ بَعْدَ رِدَّتِهِمْ ، ولَعَلَّهُمْ بِجِهادِهِمْ يُكَفِّرونَ عَمّا بَدَرَ مِنْهُمْ ، ولَعَلَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَتَهُمْ وجِهادَهُمْ فَيَغْفِرَ لَهُمْ ، وأَخْبَرَهُ أَنَّهُ لَمْ يُخَلِّفْ وراءَهُ أَحَدًا يَتَحَرَّقُ شَوْقًا إِلى قِتالِ فارِس وحَرْبِها أَكْثَرَ مِنْهُمْ .

وَصَلَ الْمُثَنّى المدينَةَ فَوَجَدَ الخَليفَةَ أَبا بَكْرٍ في مَرَضِ المَوْتِ ، ولَكِنَّ المَرَضَ لَمْ يَمْنَعِ الخَليفَةَ مِنْ أَنْ يَسْتَمِعَ إِلى فِكْرَةِ الْمُثَنّى ، ولَمْ يَمْنَعِ الْمُثَنّى مِنْ أَنْ يَعْرِضَ عَلى الخَليفَةِ رَأْيَهُ . وشَرَحَ اللهُ صَدْرَ الخَليفَةِ لِرَأْيِ الْمُثَنّى ، فاسْتَدْعى عُمَرَ بْنَ الخَطّابِ - وكانَ قَدْ عَهِدَ بالخِلافَةِ إِلَيْهِ- و قالَ لَهُ :

« اِسْمَعْ ، يا عُمَرُ ما أَقولُ لَكَ ، ثُمَّ اعْمَلْ بِهِ . . إِنِّي

لأَرْجو أَنْ أَموتَ مِنْ يَوْمي هَذا ، فَإِنْ أَنا مِتُّ فَلا تُمْسِيَنَّ حَتّى تَنْدُبَ النّاسَ إِلى الجِهادِ مَعَهُ . ولا تَشْغَلَنَّكُمْ مُصيبةٌ وإِنْ عَظُمَتْ عَنْ أَمْرِ دينِكُمْ و وَصِيَّةِ رَبِّكُمْ - وقَدْ رَأَيْتَني حينَ تُوُفِّيَ رَسولُ اللهِ ﷺ وما صَنَعْتُ ، ولَمْ يُصَبِ الخَلْقُ بِمِثْلِهِ !»

وفاضَتْ روحُ أَبي بَكْرٍ إِلى بارِئِها في لَيْلَتِهِ ، وكانَ أَوَّلُ عَمَلٍ بَدَأَ بِهِ عُمَرُ خِلافَتَهُ أَنْ دَعا النّاسَ إِلى الجِهادِ مَعَ الْمُثَنّى قَبْلَ صَلاةِ الفَجْرِ مِنَ اللَّيْلَةِ نَفْسِها . ولَمّا أَسْفَرَ الصُّبْحُ وجاءَ النّاسُ يُبايعونَهُ بِالخِلافَةِ دَعاهُمْ إِلى قِتالِ فارِس مَعَ الْمُثَنّى ، واغْتَنَمَ الْمُثَنّى هَذِهِ الفُرْصَةَ فَخَطَبَ النّاسَ ، يُهَوِّنُ عَلَيْهِمْ شَأْنَ الفُرْسِ ، ويَنْزِعُ مِنْ صُدورِهِمُ الرَّهْبَةَ مِنْ لِقائِهِمْ ، فَقالَ :

« أَيُّها الناسُ ، لا يَعْظُمَنَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُ الفُرْسِ ؛ فَقَدْ نِلْنا مِنْهُمْ ، وغَلَبْناهُمْ على خَيْرِ شِقَّيِ السَّوادِ ، وشاطَرْناهُمْ أَرْضَهُ ، وتَمَكَّنّا فيهِ ، ولَنا - إِنْ شاءَ اللهُ - ما بَعْدَ ذَلِكَ . . »

وكانَ أَبو عُبَيْدَةَ بْنُ مَسعودٍ الثَّقَفِيُّ أَوَّلَ الْمُسْتَجيبينَ ، ثُمَّ تَتَابَعَ الأَنْصارُ والْمُهاجرونَ وغَيْرُهُمْ مِنَ الْمُسْلِمينَ ، واقْتَنَعَ عُمَرُ بِرَأْيِ الْمُثَنّى فَأَذِنَ لِلتّائِبينَ مِنَ الرِّدَّةِ بالجِهادِ ، فَسارَعوا وكانوا مَدَدًا قَوِيًّا لِلْجَيْشِ الإِسْلامِيِّ ، وسَنَدًا عَظيمًا .

عَقَدَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ عُمَرُ اللِّواءَ لأَبي عُبَيْدَة ، وجَعَلَ الْمُثَنّى تابِعًا لَهُ ، وأَمَرَهُ بالعَوْدَةِ إلى الجَيْشِ وانْتِظارِ القائِدِ أَبي عُبَيْدَةَ ومَنْ مَعَهُ مِنَ المجاهِدينَ .

حينَما بَلَغَ أَبو عُبَيْدَةَ ومَنْ مَعَهُ أَرْضَ العِراقِ كانَ الفُرْسُ قَدِ اسْتَعَدّوا بِجَيْشٍ قَوِيٍّ ضَخْمٍ عَدَدُهُ وعَتادُهُ ، وجَعَلوا قِيادَتَهُ إلى واحِدٍ مِنْ أَمْهَرِ قُوّادِهِمْ ، وأَشَدِّهِمْ بَأْسًا ، يُدْعى « جابان » ، وعَزَموا عَلى مُفاجَأَةِ الجَيْشِ الإِسْلامِيِّ قَبْلَ أَنْ يُجِمَّ نَفْسَهُ مِنْ عَناءِ السَّفَرِ . . فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ أَبو عُبَيْدَةَ والْمُثَنّى ، والْتَقَى الجَيْشانِ في مَوْضِعٍ يُسَمّى « النَّمارق » (قُرْبَ الكوفَةِ مِنْ أَرْضِ العِراقِ) ولِذَلِكَ عُرِفَتْ هَذِهِ المعْرَكَةُ في التّاريخِ بِاسْمِهِ ، واقْتَتَلَ

الجَيْشانِ اقْتِتالاً عَنيفًا ، انْتَهى بهَزيمَةِ الفُرْسِ هَزيمَةً شَنْعاءَ ، وأَسْرِ قائِدِهِمْ « جابان » . . أَسَرَهُ جُنْدِيٌّ مُسْلِمٌ بَسيطٌ ، وأَمَّنَهُ عَلى نَفْسِهِ نَظيرَ فِدْيَةٍ عَرَضَها عَلَيْهِ « جابان » ، واشْتَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ يُشْهِدَ عَلى هَذا الأَمانِ قائِدَ الجَيْشِ الإِسْلامِيِّ . وكانَ الجُنْدِيُّ المسلِمُ لا يَعْرِفُ شَخْصِيَّةَ الأَميرِ ، فَلَمّا جاءَ بِهِ إلى القائِدِ عَرَفَهُ بَعْضُ الحاضِرينَ ، وَقالوا : « إِنَّهُ جابان ، قائِدُ جَيْشِ الأَعْداءِ الأَكْبَرُ في هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ ، فَلا أَمانَ لَهُ . »

وَلَكِنَّ القائِدَ الْمُسْلِمَ أَمْضى أَمانَ الْجُنْدِيِّ البَسيطِ ، وَأَبى أَنْ يُخِلَّ بِهِ ، وَقالَ :

« إِنَّ الْمُسْلِمينَ في تَناصُرِهِمْ وَتَوادِّهِمْ كَالْجَسَدِ الْواحِدِ ، يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْناهُمْ ، وَما لَزِمَ واحِدًا مِنْهُمْ يَلْزَمُ جَميعَهُمْ . »

وَاشْتَبَكَ أَبو عُبَيْدَةَ مَعَ الفُرْسِ في مَوْقِعَةٍ أُخْرى سُمِّيَتْ مَوْقِعَةَ الجِسْرِ الَّذي كانَ قائِمًا عَلى نَهْرِ الفُراتِ ، لأَنَّهُ قَدْ

كانَ بَيْنَ الجَيْشَيْنِ نَهْرٌ ، فَعَبَرهُ الْمُسْلِمونَ ، وَ كانَ لِلْفِيَلَةِ الَّتي يَسوقُها الفُرْسُ دَوْرٌ بارِزٌ في المعْرَكَةِ ، فَأرادَ أبو عُبَيْدَةَ أَنْ يُهَوِّنَ مِنْ شَأْنِها ، وَيُضْعِفَ دَوْرَها ، وَعَرَفَ أنَّ فَضْلَ الفيلِ في خُرْطومِهِ ، فَعَهَدَ إلى الفيلِ الأكْبَرِ وَضَرَبَهُ ، وَلَكِنَّ الفيلَ هَجَمَ عَلَيْهِ وَضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ ، ثُمَّ اتَّكَأَ عَلَيْهِ فَقَتَلَهُ ! وحينَئِذٍ وَقَعَ الخَلَلُ في صُفوفِ الْمُسْلِمينَ ، وَتَمَكَّنَ مِنْهُمُ الفُرْسُ ، وَلَوْلا مَوْقِفُ الْمُثَنّى وتَضْحِيَتُهُ، وَدَهاؤُهُ وَمَهارَتُهُ - لأُبيدَ الجَيْشُ الإسْلامِيُّ كُلُّهُ ؛ ذَلِكَ أنَّ واحِدًا مِنَ الْمُسْلِمينَ رَأى مَقْتَلَ قائِدِهِ فَقَطَعَ الجِسْرَ حَتّى لا يَجْتازَهُ الْمُسْلِمونَ مُدْبِرينَ ، فَأَسْرَعَ إلَيْهِ الْمُثَنّى وضَرَبَهُ، وأَعادَ الجِسْرَ إلى هَيْئَتِهِ ، ونادى في الْمُسْلِمينَ:

« أيُّها النّاسُ ، أنا دونَكُمْ أحْمي ظَهْرَكُمْ ، فَاعْبُروا الجِسْرَ عَلى مَهْلٍ و تُؤَدَةٍ ، فَإنّا لَنْ نُزايِلَ مَكانَنا حَتّى نَراكُمْ قَدْ عَبَرْتُمْ جَميعًا إلى الجانِبِ الآخَرِ . . »

وَعَبَرَ الْمُسْلِمونَ الجِسْرَ ، وَلَمْ يَقْتَفِ الفُرْسُ أثَرَهُمْ ، لأنَّ ثَوْرَةً حَدَثَتْ في عاصِمَتِهِمْ ، فارْتَدَّ ومُعْظَمُ الجَيْشِ

إلَيْها ، لِيُطْفِئوا نارَها .

وكَتَبَ الْمُثَنّى إلى أميرِ الْمُؤْمنينَ عُمَرَ يُنْبئُهُ بالواقِعَةِ ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ أمْرُها ، وَحَزِنَ عَلى أبي عُبَيْدَة ، وحَمِدَ لِلْمُثَنّى تَدْبيرَهُ الحازِمَ الحَكيمَ الَّذي حَمى جَيْشَ الْمُسْلِمينَ مِنَ الإبادَةِ الكامِلَةِ .

وعَلِمَ الْمُثَنّى أنَّ القائِدَ الفارِسِيَّ « جابان » خَرَجَ مَعَ عَدَدٍ مِنَ الجُنودِ لِيَقْطَعَ طَريقَ الرَّجْعَةِ عَلى الجَيْشِ الإسْلامِيِّ ، وَلَمْ يَكُنْ « جابان » قَدْ عَرَفَ عَوْدَةَ القائِدِ الأكْبَرِ « بَهْمن » إلى العاصِمَةِ ، فَخَفَّ إلَيْهِ الْمُثَنّى في كَتيبَةٍ قَوِيَّةٍ ، وحَمَلوا عَلَيْهِ حَمْلَةً صادِقَةً ، فَفَرَّقوا جَمْعَهُ ، وهَزَموا جَيْشَهُ ، وأَسَروهُ ، فَأمَرَ الْمُثَنّى بِضَرْبِ عُنُقِهِ . وهَكَذا لَمْ تُغْنِ عَنْهُ الخَديعَةُ الَّتي اصْطَنَعَها في مَوْقِعَةِ « النَّمارِقِ » شَيْئًا ، ولَمْ تُنْقِذْهُ مِنَ المَوْتِ بِأيْدي الْمُسْلِمينَ .

عَلى إثْرِ مَوْقِعَةِ الجِسْرِ كَتَبَ الْمُثَنّى إلى سائِرِ قُوّادِ جُيوشِ الْمُسْلِمينَ في فارس أنْ يَنْضَمّوا إلَيْهِ ، وَأنْ يُوافوهُ في مَوْضِعٍ اسْمُهُ « البُوَيْب » (مَوْضِع قَريب مِنْ مَكانِ

الكوفة اليَوْمَ) ؛ لأَنَّ عُيونَهُ وجَواسيسَهُ أَخْبَروهُ بأنَّ الفُرْسَ يُعَبِّئونَ جَيْشًا قَوِيّا ضَخْمًا لِمُلاحَقَةِ الْمُسْلِمينَ ، وإخْراجِهِمْ مِنْ أرْضِ العِراقِ ، وَأَنَّ قِيادَةَ الجَيْشِ إلى واحِدٍ مِنْ أخْبَثِ رُؤَسائِهِمْ و أدْهاهُمْ وهُوَ « مهران » .

كانَ الوَقْتُ رَمَضانَ ، فأمَرَ الْمُثَنّى الجَيْشَ بالإفْطار لِيَكونَ أَقْوى عَلى القِتالِ وأَقْدَرَ ، وعَبَّأَ الجَيْشَ تَعْبِئَةً قَوِيَّةً، وأنْصَفَ النّاسَ في القَوْلِ والفِعْلِ ، وخَلَطَهُمْ في الْمَحْبوبِ والمكْروهِ ، وطافَ بِكُلِّ صاحِبِ رايَةٍ لِيَقولَ لَهُ : « أرْجو أن لا يُؤْتَى الْمُسْلِمونَ مِنْ قِبَلِكُمْ . »

وكانَ نَهْرُ الفُراتِ بَيْنَ الْجَيْشيْنِ الْمُتَقابِلَيْنِ ، فَقالَ « مِهْران » قائِدُ الفُرْسِ : « إمّا أنْ تَعْبُروا إلَيْنا و إمّا أَنْ نَعْبُرَ إلَيْكُمْ . »

وكانَ الْمُثَنّى قَدِ اسْتَفادَ مِنْ تَجْرِبَةِ العُبورِ في مَوْقِعَةِ الجِسْرِ ، فَقالَ لَهُ : « بَلِ اعْبُروا أَنْتُمْ إلَيْنا . »

وَعَبَرَ جُنودُ الفُرْسِ نَهْرَ الفُراتِ ، وقالَ الْمُثَنّى لِجُنودِهِ : « إنّي مُكَبِّرٌ ثَلاثًا فَتَهَيَّئوا واسْتَعِدّوا ، فإذا كَبَّرْتُ

الرابِعَةَ فَاحْمِلوا .»

وما إنْ كَبَّرَ التَّكْبيرَةَ الأولى حَتّى عاجَلَهُمُ الفُرْسُ ، فَاشْتَبَكوا مَعَهُمْ في قِتالٍ ضارٍ شَديدٍ ، وَ لَمْ يَكُنْ هُناكَ وَقْتٌ لِلتَّكْبيراتِ الأُخْرى !

وكانَ بَعْضُ العَرَبِ مِنْ قَبيلَةِ تَغْلِب الَّذينَ اعْتَنَقوا الْمَسيحِيَّةَ يَشْهَدونَ هَذِهِ المعْرَكَةَ ، فَلَمّا حَمِيَ وَطيسُها ، واشْتَدَّ أُوارُها - قاتَلوا في صُفوفِ إخْوانِهِمُ العَرَبِ حَمِيَّةً وحِفاظًا .

و قالَ الْمُثَنّى لِواحِدٍ مِنْهُمُ اسْمُهُ « أَنَس بْن هِلال » :

« يا أنَس ، إنَّكَ فَتًى عَرَبِيٌّ وإنْ لَمْ تَكُنْ عَلى دينِنا ، فَإذا رَأَيْتَني قَدْ حَمَلْتُ عَلى مِهْران قائِدِ الفُرْسِ فَاحْمِلْ مَعي أنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ . »

ثُمَّ حَمَلَ الْمُثَنّى عَلى « مِهْران » وهُوَ في قَلْبِ الجَيْشِ الفارسِيِّ ، فَأَزالَهُ عَنْ مَكانِهِ حَتّى خَلَطَ القَلْبَ بالمَيْمَنَةِ ، واسْتَطاعَ فَتًى مِنْ فِتْيانِ تَغْلب الَّذينَ يَحْمونَ ظَهْرَ الْمُثَنّى

أنْ يَقتُلَ « مهران » فَأَخَذَ يَصيحُ : « قَتَلْتُ مهران ! أنا الفَتَى التَّغْلِبيُّ !»

وهُزِمَ الفُرْسُ ، ومَضَوْا عَلى وجُوهِهِمْ لا يَلْوونَ عَلى شَيْءٍ ، ولَمّا هَمّوا بِعُبور الجِسْرِ الَّذي كانَ قائِمًا عَلى نَهْرِ الفُراتِ - وَجَدوا الْمُثَنّى قَدْ سَبَقَهُمْ إلَيْهِ وقَطَعَهُ ، فَانْحَصَروا بَيْنَ الْمُسْلِمينَ والنَّهْرِ ، وأخَذَتْ خُيولُهُمْ تَجولُ يَمينًا وشِمالاً ولا تَجِدُ مَفَرًّا ، والْمُسْلِمونَ يَقْتُلونَهُمْ ويَأْسِرونَهُمْ .

وعَلى الرَّغْمِ مِنْ هَذِهِ الهَزيمَةِ السَّاحِقَةِ الماحِقَةِ فإنَّ الفُرْسَ قَدْ جَمَعوا جُموعَهُمْ ، وجَيَّشوا جُيوشَهُمْ لِقِتالِ الْمُسْلِمينَ ، ونَشَطَ مَلِكُهُمْ لِهَذِهِ الْمُهِمَّةِ ، والتَفَّ حَوْلَهُ قَوْمُهُ ، وسارَعَ إلى انْتِخابِ قادَةِ الجَيْشِ مِنْ أعْظَمِ رجالِ دَوْلَتِهِ بَأسًا ، وأشَدِّهِمْ مِراسًا ، وأكْثَرِهِمْ دَهاءً ، وأوْسَعِهِمْ حيلَةً ، و تَهَيَّأَ لِلزَّحْفِ عَلى جَيْشِ الْمُسْلِمينَ .

وكَتَبَ الْمُثَنّى إلى أميرِ الْمُؤْمِنينَ عُمَرَ بِذَلِكَ ، فَوَقَعَ

عَلَيْهِ مِنَ الأَمْرِ ما أَهَمَّهُ وأَقْلَقَهُ ، وَرَأى ومَعَهُ كِبارُ الصَّحابَةِ في الْمَدينَةِ أنْ لا كِفاءَ لِهَذا الأَمْرِ غَيْرُ « سَعْد بْن أبي وَقّاص » فَعَقَدَ لَهُ اللِّواءَ وخَرَجَ يُشَيِّعُهُ وجُنودَهُ ، وأرْسَلَ وَراءَهُ الأمْدادَ ، وكَتَبَ إلى الْمُثَنّى يَأْمُرُهُ بالانْسِحابِ إلى حُدودِ الصَّحْراءِ ، وَانْتِظارِ الجَيْشِ القادِمِ إِلَيْهِ .

ولَمْ يَسْتَطِعِ الْمُثَنّى أنْ يَذْهَبَ إلى القائِدِ سَعْد بْنِ أبي وَقّاص ، فَقَدْ وافَتْهُ مَنِيَّتُهُ ، مِنْ جَرّاءِ جِراحٍ كانَ قَدْ أصيبَ بِها يَوْمَ الجِسْرِ .

لَقَدْ طَلَبَ الاسْتِشْهادَ في سَبيلِ اللهِ ، ولَقِيَ رَبَّهُ بَعْدَ دَوِيّ اسْمِهِ في فارِس ، وكانَ مَثارَ الرُّعْبِ والفَزَعِ في أرْجائِها، وَكانَ أوَّلَ مَنْ جَرَّأَ الْمُسْلِمينَ عَلَيْها . . رَحِمَهُ اللهُ ورَضِيَ عَنْهُ !

عاشقةُ البحرِ

أمُّ حَرام

زارَ الرَّسولُ ﷺ يَثْربَ (المدينَةَ) وهُوَ طِفْلٌ صَغيرٌ، صَحِبَتْهُ أُمُّهُ السَّيِّدَةُ آمِنَةُ بنْتُ وَهْب لِتُزيرَهُ قَبْرَ أَبيهِ ؛ إذْ كانَت الْمَنِيَّةُ قَدْ وافَتْهُ و هُوَ يُمَرَّضُ عِنْدَ أَخْوالِ أَبيهِ عَبْدِ الْمُطَّلِب مِنْ بَني النَّجّارِ . ولَعَلَّ اللهَ أَرادَ لِمَنْ سَيَصْطَفِيهِ رَسولاً أَنْ يَتَعَرَّفَ عَلى الْمَدينَةِ ودُروبِها قَبْلَ أَنْ تَكونَ لَهُ مُهاجَرًا ، وأَنْ يَلْعَبَ مَعَ أَبْناءِ أَخْوالِهِ مِنْ بَني النَّجّارِ قَبْلَ أَنْ يَكونوا لَهُ أَنْصارًا ، وأَنْ يَعومَ في بِئْرِ عَديٍّ أَوْ بِرْكَتِهِ ، ويُتْقِنَ العَوْمَ مَعَ هَؤُلاءِ الأَبْناءِ الأَنْدادِ ، إذْ كانَ يَقولُ ﷺ: « أَحْسَنْتُ العَوْمَ في بِئْرِ عديٍّ بَني النَّجّارِ . »

ولَعَلَّ « أُمَّ حَرام » كانَتْ آنَذاكَ طِفْلَةً صَغيرَةً لاهِيَةً مِنْ بَناتِ بَني النَّجّارِ ، وشَهِدَتْ زِيارَةَ الرَّسولِ ﷺ ، كَما شَهِدَتْ مَقْدَمَهُ مُهاجِرًا حينَ كَبِرَتْ ونَمَتْ ، وانْتَظَرَتْ هَذا الْمَقْدَمَ مُسْلِمَةً مَعَ الْمُنْتَظِرينَ والْمُنْتَظِراتِ ، ورَدَّدَتْ مَعَ الْمُنْشِداتِ :

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنا مِنْ ثَنِيّاتِ الْوَداعْ
وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنا جِئْتَ بِالأَمْرِ الْمُطاعْ
أَيُّها الْمَبْعوثُ فينا ما دَعا للهِ داعْ
جِئْتَ شَرَّفْتَ الْمَدينَةَ مَرْحَبًا يا خَيْرَ داعْ

فَقَدْ كانَ زَوْجُها « عُبادَةُ بْنُ الصّامِتِ » واحِدًا مِنَ النُّقَباءِ الاثْني عَشَرَ في بَيْعَةِ العَقَبَةِ الثانِيَةِ ، الَّتى بايَعَ الأَنْصارُ فيها رَسولَ اللهِ الأَمينَ عَلى السَّمْعِ والطّاعَةِ في الْمَنْشَطِ والْمَكْرَهِ ، وعَلى النَّفَقَةِ في الْيُسْرِ والعُسْرِ ، وعَلى الأَمْرِ بِالْمَعْروفِ والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وعَلى أَنْ يَقوموا للهِ وَحْدَهُ ، وعَلى أَنْ يَنْصُروهُ حينَ يَقْدَمُ إِلَيْهِمْ ، وعَلى أَنْ يَمْنَعوهُ مِمّا يَمْنَعونَ مِنْهُ نِساءَهُمْ وأَوْلادَهُمْ ،

ولَهُمُ الجَنَّةُ .

وما إنْ قَدِمَ الرَّسولُ الكَريمُ الْمَدينَةَ ، واسْتَتَبَّ لَهُ الأَمْرُ فيها ، حَتّى كانَ « عُبادَة بْنُ الصّامِت » وزَوْجَتُهُ « أمُّ حَرام » قَريبَيْنِ مِنْهُ ، حَتّى إذا بَدَأَ الصِّدامُ الْمُسَلَّحُ بَيْنَ الْمُسْلِمينَ والْمُشْرِكينَ خَرَجَ الزَّوْجانِ : الزَّوْجُ لِلْقِتالِ والطِّعانِ ، والزَّوْجَةُ لِلتَّمْريضِ ، ونَقْلِ الجَرْحَى ، وحِراسَةِ الْمَتاعِ ، وإعْدادِ الطَّعامِ لِلْمُقاتِلينَ . ولَمْ تَتَخَلَّفْ « أمُّ حرام » عَنْ غَزْوَةٍ قَطُّ .

وكانَتْ - في السِّلْمِ - رَبَّةَ بَيْتٍ ناجِحَةً ، تُحْسِنُ القِيامَ عَلى نَظافَةِ بَيْتِها وتَنْظيمِهِ ، وحُسْنِ تَرْتيبِهِ ، وكانَ الرَّسولُ ﷺ يَزورُهُمْ بَيْنَ الحينِ والحينِ ، كَما يَزورُ أصْحابَهُ ، ويَجِدُ عِنْدَها حُسْنَ الضِّيافَةِ ، وتَجِدُ هِيَ سَعادَتَها التّامَّةَ في هَذِهِ الزِّياراتِ ، فَلا تَدَّخِرُ وُسْعًا في إكْرام الرَّسول ﷺ ، وتَقْديمِ أجْوَدِ ما عِنْدَها لِقِرى الضَّيْفِ الكَريمِ ، وأَيُّ ضَيْفٍ أكْرَمُ مِنْ هَذا الزّائِرِ الَّذي يُؤْثِرونَهُ عَلى أنْفُسِهِمْ ، ويُحِبّونَهُ

أكْثَرَ مِنْ ذَواتِهِمْ ؛ لأَنَّ هَذا هُوَ كَمالُ الإِيمانِ .

وذاتَ يَوْمٍ كانَ جالِسًا في بَيْتِ « أمِّ حَرام » فَأَخَذَتْهُ سِنَةٌ مِنَ النَّوْمِ ، ثُمَّ صَحا وهُوَ يَضْحَكُ ، وقَدْ بَرَقَتْ أساريرُ وَجْهِهِ ، وأشْرَقَتْ جَبْهَتُهُ ، فَقالَتْ لَهُ أمُّ حَرام : « أَضْحَكَ اللهُ سِنَّكَ ، يا رَسولَ اللهِ ، ما الَّذي أَضْحَكَكَ ؟ »

ولَعَلَّها ظَنَّتْ أنَّ شَيْئًا قَدْ حَدَثَ في بيْتِها هُوَ الَّذي أضْحَكَ الرَّسولَ الحَبيبَ ، أوْ لَعَلَّ بَصَرَهُ قَدْ وَقَعَ عَلى شَيْءٍ أضْحَكَهُ . . ولَبِثَتْ لَحْظَةً - خالَتْها دَهْرًا طَويلاً - وقَدْ تَعَلَّقَ بَصَرُها بِشَفَتَي الرَّسولِ الأَمينِ .

أسْرَعَ الرَّسولُ الكَريمُ - وقَدْ لاحَظَ لَهْفَتَها ، وأَدْرَكَ تَوَجُّسَها - يُجيبُها :

« أناسٌ مِنْ أمَّتي يَرْكَبونَ البَحْرَ كَالْمُلوكِ عَلى الأَسِرَّةِ . »

يَعْني أَنَّهُمْ يَرْكَبونَ السُّفُنَ الَّتي تَجْري بِهِمْ في البَحْرِ ، هُمْ آمِنونَ وادِعونَ مُطْمَئِنّونَ ، كَأَنَّهُمُ الْمُلوكُ يَجْلِسونَ

عَلى عُروشِهِمْ في ثِقَةٍ وهُدوءٍ .

و لَمْ تُتِحْ « أمُّ حَرام » لِنَفْسِها فُرْصَةً لِلتَّفْكيرِ في الأَمْرِ ، وإنَّما سارَعَتْ تَقولُ : « يا رَسولَ اللهِ ، اُدْعُ اللهَ أَنْ أكونَ واحِدَةً مِنْهُمْ . »

فَقالَ لَها ﷺ : « أَنْتِ مِنْهُمْ . »

ومُنْذُ ذَلِكَ اليَوْمِ و هِيَ تَحْلُمُ بِأَنَّها سَوْفَ تَمْتَطي سَفينَةً تَمْخُرُ بِها عُبابَ البَحْرِ ، كَما امْتَطَتِ الجَمَلَ يَقْطَعُ بِها الصَّحْراءَ . يُداعِبُها هَذا الأَمَلُ الحُلْوُ في اليَقَظَةِ والْمَنام ، لا تَشُكُّ لَحْظَةً واحِدَةً في تَحَقُّقِهِ و وُقوعِهِ ، فَرُؤْيا الأَنْبياءِ وَحْيٌ ، وقَدْ رَأى الرَّسولُ ﷺ ذَلِكَ ، وأَخْبَرَها بِهِ ، وَ وَعَدَها أَنَّها سَتَكونُ مِنْ بَيْنِ الرّاكِبينَ .

وانْتَقَلَ الرَّسولُ الكَريمُ إلى الرَّفيقِ الأَعْلى ، ولَمْ يَتَحَقَّقْ وَعْدُهُ لَها بَعْدُ ، فَظَلَّتْ تَنْتَظِرُهُ في عَهْدِ خَليفَتِهِ أبي بَكْر ، ولَكِنَّ أيامَ أبي بكر تَنْقَضي والوَعْدُ لا يَزالُ قائِمًا ، و« أمُّ حرام » لا تَزالُ تَنْتَظِرُ في لَهْفَةٍ وتَشَوُّقٍ ، وفي ثِقَةٍ

مِنْ وقُوعِهِ ، واطْمِئنانٍ إلى تَحققُّهِ .

وتأتي خِلافَةُ عُمَرَ بْنِ الخَطّاب ، وتَمْتَدُّ الفُتوحُ الإسْلامِيَّةُ ، وتَتَّسعُ رُقْعَةُ الدَّوْلَةِ ، والوَعْدُ لا يَزالُ قائِمًا ، و« أمُّ حرام » لا تَزالُ تَنْتَظِرُ !

وفُتِحَتْ مِصْرُ في عَهْدِ أميرِ الْمُؤْمِنينَ عُمَرَ ، وفي أثناءِ القِتالِ بَيْنَ الرّوم الَّذينَ كانوا يَحْتَلّونَها ، ويَسْتَغِلّونَ خَيْراتِها ، ويَنْهَبونَ ثَرَواتِها ، وبَيْنَ الْمُسْلِمينَ - طَلَبَ قائِدُ جَيْشِ الْمُسْلِمينَ عَمْرو بْنُ العاص أكْثَرَ مِنْ مَدَدٍ ، وكانَ في بَعْضِ الْمَدَدِ عُبادَةُ بْنُ الصّامِت ، وجاءَتْ مَعَهُ زَوْجَتُهُ أمُّ حرام إلى مِصْرَ ، وانْتَهى الفَتْحُ ، ودَخَلَتْ مِصْرُ في حَوْزَةِ العالَمِ الإسْلامِيِّ ، واسْتَقَرَّ عُبادَة وزَوْجَتُهُ في مِصْرَ .

وانْقَضَتْ خِلافَةُ عُمَر ، وجاءَتْ خِلافَةُ عُثْمان بْن عَفّان ، والوَعْدُ لا يَزالُ قائِمًا ، و« أمُّ حَرام » لا تَزالُ تَنْتَظِرُ !

أبَى عُمر بْنُ الخَطّاب أنْ يَرْكَبَ الْمُسْلِمونَ البَحْرَ ؛

لأَنَّهُمْ لا عَهْدَ لَهُمْ بِالقِتالِ فيهِ ، ولَمّا وَلِيَ عُثْمان الأمْرَ شَكا إِلَيْهِ أَمَراءُ الشّام و مِصْر ما يُعانونَهُ مِنَ الجُيوشِ الرّومِيَّةِ ، الَّتي تَتَجَمَّعُ أَساطيلُها البَحْرِيَّةُ في جُزُرِ البَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ ، وتُهاجِمُ السّاحِلَ الإِسْلامِيَّ عَلى طولِ حُدودِهِ البَحْرِيَّةِ ، وتَنالُ مِنْهُ مَنالاً عَظيمًا . ورَغِبوا إِلَيْهِ في تَكْوينِ أُسْطولٍ بَحْرِيٍّ ، يَسْتَطيعُ أَنْ يَحْمِيَ الشَّواطِئَ الإِسْلامِيَّةَ ، ويَدْرَأَ عَنْها عُدْوانَ الرّوم ، بَلْ ويُهاجِمُ الجُيوشَ الرّومِيَّةَ الْمُتَجَمِّعَةَ في جُزُرِ البَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ قَبْلَ أَنْ تَنْقَضَّ عَلى الشَّواطِئِ الإِسْلامِيَّةِ ، فَالهُجومُ عَلى العَدُوِّ أَجْدى وَسيلَةٍ لِلدِّفاعِ .

وشَرَحَ اللهُ صَدْرَ عُثْمان بْنِ عَفّان لِهَذا الأَمْرِ ، فَأَجابَهُمْ إِلَيْهِ ، واشْتَرَطَ عَلى الأُمَراءِ أَلا يُكْرِهوا أَحَدًا مِنَ الجُنودِ عَلى رُكوبِ البَحْرِ ، وإِنَّما يَرْكَبُهُ مَنْ يَتَطَوَّعُ لِذَلِكَ .

ونَشِطَ مُعاوِيَةُ بْنُ أَبي سُفْيان ، أَميرُ بِلادِ الشّامِ في ذَلِكَ الحينِ ، لِهَذا الأَمْرِ الَّذي كَلَّفَهُ بِهِ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ عُثْمان ، وشَمَّرَ عَنْ ساعِدِ الجِدِّ ، وأَعانَهُ أَميرُ مِصْر عَبْدُ اللهِ بْن أَبي

السَّرْح . و لَمّا عَلِمَ الرّومُ بأنَّ الْمُسْلِمينَ يَجدّونَ في بناءِ أُسْطولِ بَحْرِيٍّ حاوَلوا إحْراقَ السُّفُنِ قَبْلَ أَنْ يَكْتَمِلَ تَكْوينُ الأُسْطولِ ، لِيَظَلَّ البَحْرُ المتَوَسِّطُ تَحْتَ سَيْطَرَتِهِمْ ، ولَكِنَّ اللهَ رَدَّ كَيْدَهُمْ في نُحورِهِمْ ، واكْتَمَلَ العَدَدُ الَّذي أرادَ الْمُسْلِمونَ بناءَهُ ، ونَهَضَ مُعاوِيَة لِقِتالِهِمْ ، وغَزا جَزيرَةَ قُبْرص ، وأَدْخَلَها في حَوْزَةِ الدَّوْلَةِ الإسْلامِيَّةِ في العام الثّامِنِ والعِشْرينَ مِنَ الهِجْرَةِ، ولَمْ تَرْكَبْ « أمُّ حَرام » البَحْرَ بَعْدُ ؛ فَقَدْ كانَتْ في مِصْرَ، وكانَ مُعاوِيَة يَتَحَرَّكُ بالأُسْطولِ مِنْ بِلادِ الشّامِ، وظَلَّتْ تَتَرَقَّبُ تَحَقُّقَ وَعْدِ رَسولِ اللهِ ﷺ لَها في ثِقَةٍ واطْمِئْنانٍ ، فَقَدْ بَدَأَ تَحَقُّقُهُ بِبِناءِ السُّفُنِ ، وغَزْوِ مُعاوِيَة جَزيرَةَ قُبْرُص ، لَقَدْ رَكِبَ الْمُسْلِمونَ البَحْرَ كَالْمُلوكِ فَوْقَ الأَسِرَّةِ ، وبَقِيَ أَنْ تَرْكَبَ هِيَ !

ولَمّا جاءَ العامُ الحادي والثَّلاثينَ مِنَ الهِجْرَةِ رَكِبَ الْمُسْلِمونَ البَحْرَ لِقِتالِ الرّومِ ، وكانَ ذَلِكَ بقيادَةِ عَبْدِ الله ابْنِ أبي السرح والي مِصْرَ ، وحينَئِذٍ طَلَبَتْ « أمُّ حَرام »

أنْ تَخْرُجَ مَعَ الْمُقاتِلينَ ، وأَنْ تَرْكَبَ البَحْرَ كَما وَعَدَها الرَّسولُ الأمينُ ، فَأَذِنَ لَها الْقائِدُ ، ودارَتْ مَعْرَكَةٌ حامِيَةٌ بَيْنَ الجَيْشِ الإسْلامِيِّ وجَيْشِ الرّومِ ، سُمِّيَتْ « ذات الصّواري » ، وأَجْرى اللهُ النَّصْرَ فيها عَلى يَدِ الجَيْشِ الإسْلامِيِّ . وَكانَتْ مَفْخَرَةً لِلْبَحْرِيَّةِ الإسْلامِيَّةِ ، حَيْثُ تَمَكَّنَ الْمُقاتِلونَ الْمُسْلِمونَ مِنْ رَبْطِ سُفُنِ الرّومِ بِحِبالٍ قَوِيَّةٍ مَتينَةٍ إلى سُفُنِهِمْ ، فَجَعَلوا الْمَعْرَكَةَ كَأَنَّها تَدورُ رَحاها في البَرِّ ، ودَخَلوا عَلى جُنودِ الرّومِ فَأَشْبَعوهُمْ تَقْتيلاً .

شَهِدَتْ « أمُّ حَرام » مَعْرَكَةَ « ذاتِ الصَّواري » ، وسَعِدَتْ بِالنَّصْرِ الَّذي حَقَّقَهُ اللهُ لِلْمُسْلِمينَ ، كَما سَعِدَتْ بِتَحَقُّقِ وَعْدِ الرَّسولِ الكَريمِ لَها بِرُكوبِ البَحْرِ . . ولَمّا انْتَهَتِ الْمَعْرَكَةُ جِيءَ لَها بِفَرَسٍ لِتَرْكَبَها ، وما إنِ امْتَطَتْها حَتّى نَفَرَتِ الفَرَسُ ، فَأَلْقَتْها عَلى صَخْرَةٍ ، فَقَضَتْ نَحْبَها لِوَقْتِها ، وحَظِيَتْ بِالشَّهادَةِ ، ودُفِنَتْ في جَزيرَةِ قُبْرُص ،

ونامَتْ قَريرَةَ العَيْنِ وقَدْ أصبَحَتْ مَعَ الَّذينَ أنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبيّينَ والصِّدّيقينَ والشُّهَداءِ و الصّالِحينَ ، وحَسُنَ أولَئِكَ رَفيقًا .

فاتِحُ إفريقية
عُقْبَةُ بنُ نافِعٍ

أشْرَقَتِ الشَّمْسُ في مَكَّةَ - قَبْلَ عامٍ مِنْ هِجْرَةِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ - تُلامِسُ الجِبالَ وَالصُّخورَ ، وَتَمْلأُ النِّجادَ والوِهادَ ، وَتَبْسُطُ أشِعَّتَها حارَّةً مُلْتَهِبَةً على رِمالِ الصَّحْراءِ الواسِعَةِ . وَسَعَى النّاسُ مِنْ دورِهِمْ يَنْتَشِرونَ في هَذِهِ الأرْضِ ، يَتَناقَلونَ الأنْباءَ ، وَيَرْوونَ الأخْبارَ ، وَيَعْرِفونَ أنَّ « نافِع بْنَ القيس الفهريّ » قَدْ وُلِدَ لَهُ ، وَأنَّهُ دَعا وليدَهُ « عُقْبَة » تَيَمُّنًا بِهَذا الاِسْمِ الَّذي يَحْمِلُهُ كَثيرٌ مِنْ فُرْسانِ قُرَيْشٍ في ذَلِكَ الحينِ ، لَعَلَّ ابْنَهُ يَكونُ واحِدًا مِنْهُمْ فيما يَسْتَقْبِلُ مِنْ أيّامِ حَياتِهِ .

وَيَنْشَأُ الصَّبِيُّ في بَيْتٍ : تَعْزِفُ أوْتارُهُ ألْحانَ الإيمانِ

وَالجِهادِ وَأَنْغامَ التَّضْحِيَةِ والفِداءِ ، فَتُغْرَمُ نَفْسُهُ بِهَذِهِ الأَلْحانِ وَتِلْكَ الأَنْغامِ غَرامًا عَنيفًا . وَيَعْرِفُ أَنَّ وَسيلَتَهُ إلى ذَلِكَ هِيَ الفُروسِيَّةُ ، فَيَأخُذُ نَفْسَهُ بِتَعَلُّم فُنونِها ، وَإِتْقانِ أساليبِها ، وَيَكونُ رائِدَهُ وَمُعَلِّمَهُ في ذَلِكَ كُلِّهِ ابْنُ خالَتِهِ عَمْرو بْنُ العاص .

وَما إِنْ يُناهِزِ الفَتى العِشْرينَ مِنْ عُمْرِهِ : حَتّى يَرْحَلَ مُجاهِدًا في سَبيلِ اللهِ تَحْتَ قِيادَةِ عَمْرو بْنِ العاص في فَتْحِ الشّامِ وَ مِصْرَ ، وَبَرْقَةَ ، وَتَظْهَرُ في أَثْناءِ ذَلِكَ مَلامِحُ العَبْقَرِيَّةِ الحَرْبِيَّةِ في عُقْبَة ، وَيُبْهَرُ بِهِ الجُنودُ والقادَةُ لِما يُبْديهِ مِنْ ضُروبِ البَسالَةِ وَفُنونِ الشَّجاعَةِ . وَيَكْتُبُ عَمْرو إلى عُمَرَ بْنِ الخَطّابِ بِما فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ البِلادِ ، وَبِما أَفاءَ عَلَيْهِ مِنَ المَغانِمِ ، وَبِأَنَّهُ تَرَكَ عُقْبَة بْنَ نافع في بَرْقَة قائِمًا عَلَيْها ، وَ داعِيَةً إلى اللهِ بَيْنَ سُكّانِها .

وَيُقيمُ عُقْبَة الشّابُّ بَيْنَ أَهْلِ بَرْقَة : داعِيًا وَ مُبَشِّرًا بِدينِ الإسْلام ، وَيُقْبِلُ القَوْمُ عَلَيْهِ ، وَيَدْخُلونَ في دينِ اللهِ أَفْواجًا عَلى يَدَيْهِ ، تَجْتَذِبُهُمْ بَساطَةُ الدّينِ وَفِطْرَتُهُ ،

وَسَماحَةُ عُقْبَةَ وَ زُهْدُهُ ، وَ بَسالَتُهُ وَ فُروسَتُهُ .

وتَحْدُثُ في الأُمَّةِ الإسْلامِيَّةِ أَحْداثٌ جِسامٌ ، وَيَنْقَسِمُ الْمُسْلِمونَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ ، وَتَثورُ بَيْنَهُمُ الفِتَنُ وَالقَلاقِلُ وَيُؤْثِرُ عُقْبَةُ الْعُزْلَةَ وَالاعْتِزالَ ، وَيَعْكُفُ في مِصْرَ عَلى الْعِبادَةِ وَالنُّسْكِ ، والتَّقَرُّبِ إلى اللهِ وَمُناجاتِهِ ، وَيَعيشُ حَياةَ الزُّهْدِ وَالتَّقَشُّفِ ، فَتَزْدادُ روحُهُ قُوَّةً ، وَنَفْسُهُ تَطَهُّرًا ، وَبَصيرَتُهُ نورًا .

وَلَكِنَّ سَنَواتِ العُزْلَةِ لا تَدومُ ، فَما إنْ يُطِلُّ عامُ الأرْبَعينَ لِلْهِجْرَةِ . حَتّى يَعودَ عُقْبَةُ إلى مَيْدانِ الكِفاحِ وَالجِهادِ فاتِحًا لإفْريقيَّةَ (تونُس) ، مارًّا بِبَرْقَةَ ، حَيْثُ كانَ يُقيمُ مُنْذُ سَنَواتٍ ، فَيَتَنادَى الْمُسْلِمونَ إلَيْهِ ، وَيَنْضَوونَ تَحْتَ لِوائِهِ ، وَيَمْضي - بِتَوْفيقٍ مِنْ رَبِّهِ - في فَتْحِ إفريقيَّة ، وَهُوَ الْخَبيرُ بِطِباعِ قَبائِلِها ، العَليمُ بِعاداتِهِمْ وَتَقاليدِهِمْ ، العارِفُ بِأقْصَرِ الطُّرَقِ إلى قُلوبِهِمْ ، وَأَيْسَرِ السُّبُلِ إلى نُفوسِهِمْ .

وتُسلِمُ القَبائِلُ الغَفيرَةُ عَلى يَدِ القائِدِ الزّاهِدِ ، الَّذي لا يَطْمَعُ في مَغنَم ، ولاَ يَتلَبَّسُ بِدِرْهَم ولا دينار ، ولا يَنْظُرُ إلى جارِيَةٍ أَوْ سَبِيَّةٍ ، وإنَّما يَقْضي مُعْظَمَ اللَّيْلِ في صَلاتِهِ ، فإذا غَفَتْ عَيْنُهُ نامَ عَلى الأَرْضِ ، فإذا أَذَّنَ مُؤَذِّنُ الفَجْرِ نَهَضَ فَصَلّى ، ثُمَّ امْتَطى صَهْوَةَ جَوادِهِ غازِيًا في سَبيلِ اللهِ ، حَتّى يَقْطَعَ ما يَقْرُبُ مِنَ العَشْرَةِ آلافِ كيلومِتْر ، يَدْعو النّاسَ إلى رَبِّهِ : فَإنْ أَجابوهُ بَنى لَهُمُ الْمَساجِدَ ، وتَرَكَ فيهِمْ مَنْ يُعَلِّمُهُمْ دينَهُمْ ، وَإنْ أَبَوْا كانَ واجِبًا عَلَيْهِ قِتالُهُمْ حَتّى يَفيئوا لأَمْرِ اللهِ .

وَإذا كانَتِ الْمُعْجِزاتُ لا تَسْتَقيمُ إلا لِلأَنْبياءِ وَالْمُرْسَلينَ ، تُؤَيِّدُ دَعْوَتَهُمْ ، وتَكونُ بُرْهانًا عَلى صِدْقِ رِسالَتِهِمْ - فَإنَّ اللهَ حَبا أَوْلِياءَهُ الَّذينَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنونَ بِالخَيْرِ وَالكَرامَةِ . وَقَدْ كانَ عُقْبَةُ وَلِيًّا لِلَّهِ مُسْتَجابَ الدُّعاءِ ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ وَقَدْ دانَتْ لَهُ بِلادٌ كَثيرَةٌ مِنْ إفريقيَّة جَنَحَ إلى شَيْءٍ مِنَ الرّاحَةِ ، يَرُمُّ فيه الْمُسْلِمونَ

أَسْلِحَتَهُمْ ، وَيُحْيونَ بِهِ نُفوسَهُمْ ؛ اسْتِعْدادًا لِمَعْرَكَةٍ ضارِيَةٍ في مَدينَةِ « خاوار » الَّتي تَقَعُ في جَبَلٍ شاهِقٍ ، يَصْعُبُ ارْتِقاؤُهُ وَالتَّغَلُّبُ عَلى الْمُتَحَصِّنينَ بِأَسْوارِهِ ، وَيَسْتَطيعُ أَهْلُها النَّيْلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ قَبْلَ بُلوغِهِمْ .

وَلَكِنَّ العَزيمَةَ الَّتي لا تَعْرِفُ الهَزيمَةَ وَالقَناةَ الَّتي لا تَلينُ ، وَالنَّفْسَ الَّتي يَعْمُرُها الإِيمانُ : فَلا يَعْرِفُ الخَوَرُ طَريقَهُ إِلَيْها- صَعِدَتِ الجَبَلَ ، وَحاصَرَتِ الْمَدينَةَ ، وَلَمْ يُفْتَحِ الحِصْنُ ، فَلَمْ تَسْتَشْعِرِ اليَأْسَ ، وَإِنَّما واتَتْها الخِبْرَةُ الْعَسْكَرِيَّةُ ، وَالحيلَةُ الْحَرْبِيَّةُ ، فَارْتَدَّ عُقْبَةُ إِلى الوَراءِ ، عامِدًا إِلى دُخولِ الْمَدينَةِ مِنْ طَريقٍ جانِبِيٍّ صَعْبٍ وَشاقٍّ ، عَدُوُّهُ فيهِ : الشَّمْسُ الَّتي تَجودُ بِأَشِعَّتِها الْمُحْرِقَةِ أَقْصى ما يَكونُ الجودُ ، وَالرِّمالُ الَّتي تَتَصاعَدُ مِنْها النّارُ الْمُلْتَهِبَةُ أَشَدَّ ما يَكونُ التَّصاعُدُ ، وَفيما بَيْنَ الأَرْضِ وَالسَّماءِ الظَّمَأُ الَّذي يَنْدُرُ مَعَهُ الْماءُ !

وَلَكِنَّ نَصْرَ اللهِ حَقٌّ لِلْمُؤْمِنينَ الصّادِقينَ ، فَقَدْ كادَ العَطَشُ يَفْتِكُ بِجَيْشِ عُقْبَةَ في هَذا الطَّريقِ الوَعِرِ ، وَلَمْ

يَجدْ عُقْبَةُ مَلْجَأً إِلَيْهِ إِلا مَوْلاهُ ، فَدَعاهُ ، وَإِذا فَرَسُ عُقْبَةَ تَضْرِبُ الأَرْضَ بِحَوافِرِها مِنْ شِدَّةِ الظَّمَأ ، وَإِذا الماءُ يَنْفَجِرُ تَحْتَ الحَوافِرِ عَذْبًا سائِغًا لِلشّارِبينَ ، فَيَسْتَبْشِرُ الْمُسْلِمونَ بِفَرَجِ اللهِ ، وَيَأْمُلونَ في نَصْرِهِ ، وَيَسْتَنْجِزونَهُ وَعْدَهُ ، وَيُطْلِقونَ عَلى النَّبْعِ (ماء فرس) وَيَسيرونَ في طَريقِهِمْ ، وَقَدْ أَطْفَأوا غُلَّتَهُمُ الصّادِيَةَ ، حَتّى دَخَلوا الْمَدينَةَ ، وَفَتَحوها لِدينِ اللهِ .

وَيَتَوَغَّلُ عُقْبَةُ في قَلْبِ إفريقيَّة ، وَيَهولُهُ بُعْدُ الشُّقَّةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَرْكَزِ الْمُسْلِمينَ في مِصْرَ ؛ فَيَرى لِزامًا عَلَيْهِ أَنْ يَبْنِيَ لِلْمُسْلِمينَ مَدينَةً تَجْمَعُهُمْ ، يُمارِسونَ فيها تَدْريبَهُمْ ، وَيَتَّخِذونَ مِنْها مُنْطَلَقًا لِمُواصَلَةِ السَّيْرِ وَالجِهادِ في سَبيلِ اللهِ ، فَيَأْتي إِلى مَكانٍ مُمْتَلِئٍ بِالسِّباعِ وَالأَفاعي ، وَيَأْمُرُ الجُنودَ بِتَطْهيرِهِ ، وَلا يَمْضي طَويلُ وَقْتٍ حَتّى يَتَطَهَّرَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، فَيَرْكُزُ حَرْبَتَهُ وَيَقولُ : « أَيُّها الْمُسْلِمونَ هَذا قَيْروانُكُم . » وَتُبْنى مَدينَةُ القيروان ، بَدْءًا بِالْمَسْجِدِ الجامِعِ الَّذي لا يَزالُ يَحْمِلُ اسْمَ « عُقْبَة » إِلى اليَوْمِ .

وَلَكِنَّ سَنَواتِ العُزْلَةِ والرَّاحَةِ مِنْ مَشَقّاتِ الجِهادِ تُفْرَضُ عَلى القائِدِ فَرْضًا ، فَلا يَجِدُ لَها إلا الطّاعَةَ وَالصَّبْرَ وَلا تَزيدُهُ إلا نُضْجًا وَ تَقَرُّبًا إلى اللهِ . يَعودُ بَعْدَها إلى إفريقيّة قائِدًا لِلْجهادِ في سَبيلِ اللهِ ، وَداعِيَةً إلى دينِهِ - وَيَمْضي مِنَ الْمُنْطَلَقِ الَّذي أَقامَهُ في قَلْبِ إفريقيَّة ، مِنَ القيروان ، غازِيًا حَتّى يَصِلَ إلى « طَنْجَة » - وَهُناكَ يَلْتَقي (بالكونت يليان) - وَقَدْ كانَ نَصْرانِيّا - الَّذي يُهادِنُ عُقْبَةَ وَيَدْخُلُ في وَلائِهِ ، وَيَدُلُّهُ عَلى الطَّريق إلى بِلادِ الْقَبائِلِ الصَّنْهاجيَّةِ الكُبْرى الَّتي تَسودُ جبالَ الأَطْلَس في الْمَغْرِب الأَقْصى مُنْذُ القَديمِ . وَما اسْتَطاعَ إنْسانٌ أَنْ يَدوسَ مَنازِلَها إلا بإذْنِها ، غَيْرُ عُقْبَة الَّذي شَقَّ أَرْضَها وَجِبالَها كَأَنَّهُ إعْصارٌ ، وَاسْتَوْلى عَلَيْها حَتّى بَلَغَ وادِيَ « درعة » في أَقْصى الْمَمْلَكَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ الآنَ .

وَهَكَذا يَمْضي القائِدُ الزّاهِدُ في طَريقِه إلى اللهِ مِنْ نَصْرٍ إلى نَصْرٍ ، حَتّى يَقِفَ عَلى شاطِئِ بَحْرِ الظُّلُمات مُمْتَطِيًا صَهْوَةَ جَوادِهِ ، وَقَدْ أَقْحَمَهُ في الْماءِ إِلى صَدْرِهِ، رافِعًا

يَدَيْهِ مُناجِيًا مَوْلاهُ : « يا رَبِّ ، وَاللهِ لَوْ عَلِمْتُ وَراءَ هَذا البَحْرِ الْمُحيطِ أَرْضًا يابِسَةً لَخُضْتُهُ غازِيًا في سَبيلِكَ . »

وَيَبْدَأ القائِدُ العَظيمُ بَعْدَ هَذِهِ الوَقْعَةِ الرّائِعَةِ عَلى الأَطْلَسِيِّ رِحْلَةَ العَوْدَةِ وَقَدْ أَرْبَتْ سِنُّهُ عَلى السِّتّينَ ، مُفَكِّرًا : كَيْفَ يُعَلِّمُ أَهْلَ هَذِهِ الأَرْضِ دينَ رَبِّهِمْ ؟ وَكَيْفَ يَدْفَعُ الإِسْلامَ رَفيقًا في قُلوبِ مَنْ لَمْ يَدْخُلوهُ ؟ وَكَيْفَ يَنْشُرُ دينَ اللهِ في أَرْضٍ جَديدَةٍ ؟ وَيَمْكُرُ بِهِ أَعْداؤُهُ : وَفي طَليعَتِهِمُ الكاهِنَةُ مَلِكَةُ « أوراس » الَّتي تَدْفَعُ أَبْناءَها الثَّلاثَةَ وَأَعْوانًا لَهُمْ ، لِيَطْمِسوا الآبارَ في طَريقِ عَوْدَةِ جَيْشِ الْمُسْلِمينَ لِتَقْضِيَ عَلَيْهِ بِالعَطَشِ ؛ إِذْ لَمْ تَسْتَطِعِ القَضاءَ عَلَيْهِ بِالسَّيْفِ ، وَلَكِنَّ اللهَ خَيْرُ الماكِرينَ ، فَتَتَجَلّى نُصْرَتُهُ لأَوْلِيائِهِ ، فَيَضْرِبُ عُقْبَةُ الأَرْضَ بِحَرْبَتِهِ ويَقولُ لِجُنودِهِ : « احْفِروا هُنا ! » فَيَنْبَثِقُ الماءُ ، وَيَنْجو الجَيْشُ مِمّا أَرادَ بِهِ الأَعْداءُ .

وَ يَقْتَرِبُ الْجَيْشُ العائِدُ مِنْ « تهودة » ويَجِدُ الأَعْداءَ قَدْ تَأَلَّبوا عَلَيْهِ مِنْ بَرْبَرٍ وبيزَنْطِيّينَ ، ويَترامى إِلى سَمْعِهِ أَنَّ

خَطَرًا يَتَهَدَّدُ القَيْروان ، فَيَأذَنُ القائِدُ لِمُعْظَم جَيْشِهِ بِالعَوْدَة إلَيْها ، وَيَسيرُ لِمُلاقاةِ العَدُوِّ الْمُتَجَمِّع في حُشودِهِ الضَّخْمَة ، وَهُوَ في خَمْسَةِ آلافٍ مِنْ جُنودِهِ الأَصْفِياءِ ، يُؤْمِنونَ أَنَّ ساعَةَ الشَّهادَةِ قَدْ دَنَتْ ، فَيَتَرَجَّلونَ عَنِ الخُيولِ ، وَيَتَقَدَّمونَ يَضْرِبونَ في صِدْقٍ وَ مَهارَةٍ ، وَبَسالَةٍ نادِرَةٍ - وَتَنْجَلي الْمَعْرَكَةُ : وَقَدِ اسْتُشْهِدَ عُقْبَةُ وَجُنودُهُ أَجْمَعونَ .

وَفي « وادي الأبيوض » بِجُمْهورِيَّةِ الجَزائِر مَبْنًى أَبْيَضُ صَغيرٌ ، عَلَيْهِ قُبَّةٌ ، هُوَ ضَريحُ سَيِّدِ شُهَداءِ الْمَغْرِبِ ، وَقُطْبِ أوْلِيائِهِ .

أرْوَى بِنْتُ عَبدِ المطَّلِبِ

أكْبَرُ الظَّنِّ أنَّ أَباها تَلَقّاها - يَوْمَ وَلِدَتْ - بالبِشْرِ والتَّرْحاب ، وغَمَرَها بِالعَطْفِ والحَنانِ ؛ إذْ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ غَيْرِهِ مِنَ الآباءِ في الجاهِلِيَّةِ ، الَّذينَ يَضيقونَ بِمَوْلِدِ البَناتِ ضيقًا شَديدًا ، ويَنْفِرونَ مِنْهُ نُفورًا عَظيمًا . يَبْدو هَذا الضّيقُ سَوادًا في وُجوهِهِمْ ، ويَعْتَمِلُ هَذا النُّفورُ غَيْظًا في صُدورِهِمْ ، قَدْ يَدْفَعُهُمْ إلى دَفْنِ بَناتِهِمْ أَحْياءً ، أوِ الإبْقاءِ عَلَيْهِنَّ مَعَ الشُّعورِ بِالذِّلَّةِ والهَوانِ ، كَما حَدَّثَ بِذَلِكَ القُرْآنُ الكَريمُ ﴿ وإذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وهُوَ كَظيمٌ . يَتَوارَى مِنَ القَوْمِ مِنْ سوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَ يُمْسِكُهُ عَلى هَوْنٍ أَمْ يَدُسُّهُ في التُّرابِ ألا ساءَ ما يَحْكُمونَ . ﴾

فَقَدْ كانَ أبوها « شَيْبَةُ بْنُ هاشِمٍ » مِنْ خَيْرِ قُرَيْشٍ نَسَبًا ، وأعْظَمِهِمْ جاهًا ، وإنْ لَمْ يَكُنْ أكْثَرَهُمْ مالاً . و« شَيْبَةُ » هُوَ جَدُّ الرَسولِ ﷺ ، الَّذي عُرِفَ بِاسْمِ « عَبْدِ المطَّلِبِ » ، فَقَدْ كانَتْ أمُّهُ « سَلْمى » مِنْ يَثْرِبَ (الْمدينَةِ) تَزَوَّجَها «هاشِمٌ » في إحْدى رِحْلاتِهِ ، فَلَمّا وَلَدَتْ « شَيْبَةَ » بَقِيَ عِنْدَها في يَثْرِبَ ، حَيْثُ كانَ « هاشِمٌ » قَدْ ماتَ . وظَلَّ في يَثْرِبَ حَتَّى كَبِرَ و نَما . وذاتَ يَوْمٍ جاءَ ثابِتُ بْنُ الْمُنْذِرِ إلى مَكَّةَ مُعْتَمِرًا ، فَلَقِيَ « الْمُطَّلِبَ بْنَ عَبْدِ مَنافٍ » وكانَتْ بَيْنَهُما مَوَدَّةٌ وألْفَةٌ ، فَقالَ لَهُ : « لَوْ رَأيْتَ شَيْبَةَ ابْنَ أخيكَ هاشِمٍ عِنْدَنا - لَرَأيْتَ جَمالاً وجَلالاً ، وهَيْبَةً وشَرَفًا . »

وكَأنَّما تَذَكَّرَ « الْمُطَّلِبُ » ابْنَ أخيهِ بَعْدَ طولِ نِسْيانٍ ، أوْ كَأنَّهُ ظَنَّ أنَّ صاحِبَهُ يُذَكِّرُهُ بِأنَّ لَهُمْ في بَني النَّجّارِ ابْنًا يَنْبَغي لَهُمْ أنْ يَرْعَوْهُ ، ويُنَشِّئوهُ بَيْنَهُمْ ، فَأقْسَمَ ألا يُمْسِيَ حَتّى يَعودَ بِابْنِ أخيهِ إلى مَكَّةَ ؛ لِيَحْيا بَيْنَ أعْمامِهِ وعَمّاتِهِ ،

ولِيَعْرِفَ أهْلَهُ وذَوِيهِ ، وَيَتَعَوَّدَ عاداتِهِمْ ، ويَنْطَبِعَ سُلوكُهُ بِطِباعِهِمْ .

وشَدَّ « الْمُطَّلِبُ » الرِّحالَ إلى يَثْرِبَ (الْمدينَة) ؛ لِيَصْطَحِبَ ابْنَ أخيهِ ، ولَكِنَّ أمَّهُ « سَلْمى » عَزَّ عَلَيْها أَنْ يُفارِقَها ابْنُها ، وأَنْ تَبْقَى وَحيدَةً ثَكْلَى وابْنُها عَلى قَيْدِ الحَياةِ ، ويَكْفيها ما أَصابَها مِنْ تَرَمُّلٍ وأَسًى . وما زالَ بها « الْمُطَّلِبُ » يُصارِعُها بِالقَوْلِ والحُجَّةِ حَتّى غَلَبَها عَلى أَمْرِها ، فَتَرَكَتْ « شَيْبَةَ » يَرْحَلُ إلى مَكَّةَ مَعَ عَمِّهِ « المطَّلِبِ » .

وعادَ « الْمُطَّلِبُ » بابْنِ أخيهِ ، وقَدْ أرْدَفَهُ خَلْفَهُ عَلى بَعيرِهِ ، فَلَمّا دَخَلَ مَكَّةَ نَهارًا رَآهُ النّاسُ خَلْفَهُ ، فَظَنّوهُ عَبْدًا اشْتَراهُ ، فَقالوا : « هَذا عَبْدُ الْمُطَّلِبِ . »

وَكانَ « الْمُطَّلِبُ » يَرُدُّ عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ ، ويَقولُ لَهُمْ : « هَذا ابْنُ أخي هاشِمٍ . . هَذا شَيْبَةُ بْنُ هاشِمٍ . » ولَكِنَّهُمْ أصَمّوا آذانَهُمْ عَنْ قَوْلِهِ ، وغَلَبَ اسْمُ « عَبْدِ المطَّلِبِ » عَلى اسْمِ « شَيْبَةَ » .

وبَلَغَ عَبْدُ المطَّلِب أوْ شَيْبَةُ في مَكَّةَ الْمَنْزِلَةَ السّامِقَةَ الَّتي كانَ يَتَبَوَّؤُها أبوهُ ، بَلْ زادَ عَلَيْها وتَفَوَّقَ ، وارْتَفَعَتْ مَكانَتُهُ في قُرَيْشٍ والعَرَبِ ، وعُرِفَ عَنْهُ العَقْلُ الرَّشيدُ ، والرَّأْيُ السَّديدُ ، وما كانَ لِشَيْخِ قُرَيْشٍ ، ومُطْعِمِ الحَجيجِ وساقيهِمْ أَنْ يَلْقى مَوْلودَتَهُ بِغَيْرِ الحُبِّ والبِرِّ والحَنانِ ، وأَنْ يَتَعَهَّدَها - كَغَيْرِها مِنْ بَناتِهِ وبَنيهِ - بِالتَّأْديبِ والتَّهْذيبِ .

نَشَأَتْ « أَرْوَى » إِذًا في بَيْتٍ يُرَفْرِفُ في سَمائِهِ طائِرُ الحُبِّ ، ويَبْسُطُ الحَنانَ عَلَيْهِ رُواقَهُ ، وتَسْري الْمَوَدَّةُ في حَناياهُ كَما يَسْري الماءُ في الأعْوادِ الخَضْراءِ . . وظَلَّتْ تَحوطُها رِعايَةُ أُمِّها « فاطِمَةَ » وحَدَبُ أبيها ، حَتّى بَلَغَتْ سِنَّ الزَّواجِ ، فَتَزَوَّجَتْ رَجُلاً مِنْ أَبْناءِ عُمومَتِها ، هُوَ « عُمَيْرُ بْنُ وَهْبٍ » ، و وَلَدَتْ لَهُ وَلَدًا سَمَّياهُ « طُلَيْبًا » .

ولَمّا ماتَ « عُمَيْرٌ » تَزَوَّجَها « أَرْطاةُ بْنُ شُرَحْبيلٍ » مِنْ أَبْناءِ عُمومَتِها كَذَلِكَ ، فَأَنْجَبَتْ مِنْهُ بِنْتًا دَعَتْها « فاطِمَةَ » .

وحينَ بَزَغَ فَجْرُ الإسْلامِ ، وشَرَعَ خَبَرُهُ يَسْري - عَلى

مَهْلٍ – في بُيوتِ مَكَّةَ – بادَرَ وَلَدُها « طُلَيْبٌ » فَأَسْلَمَ ، و كانَ أوَّلَ مَنْ ضَرَبَ مُشْرِكًا مِنَ الْمُسْلِمينَ ؛ فَقَدْ سَبَّ أبو جَهْلٍ الرَّسولَ ﷺ فَضَرَبَهُ « طُلَيْبٌ » بِلِحي جَمَلٍ (سَيْرٍ مَصْنوعٍ مِنْ جِلْدِ الجَمَلِ) فَشَجَّ رَأْسَهُ شَجًّا مُنْكَرًا .

وسَعَى « طُلَيْبٌ » إلى أمِّهِ « أرْوى » يَقولُ لَها : « يا أُمّاهُ ، لَقَدْ أَسْلَمْتُ و اتَّبَعْتُ مُحَمَّدًا ﷺ . »

فَقالَتْ لَهُ : « إنَّ أحَقَّ مَنْ آزَرْتَ و نَصَرْتَ ابْنُ خالِكَ ، واللهِ لَوْ نَقْدِرُ عَلى ما يَقْدِرُ عَلَيْهِ الرِّجالُ – لَدافَعْنا عَنْهُ . »

قالَ وَلَدُها : « فَما يَمْنَعُكِ ، يا أمّي ، مِنْ أنْ تُسْلِمي وتَتَّبِعيهِ ؟ لَقَدْ أسْلَمَ أخوكِ حَمْزَةُ ، وأعَزَّ اللهُ بِهِ الإسْلامَ ونَبِيَّهُ . »

صَمَتَتْ « أرْوَى » ، وكَأَنَّها تُفَكِّرُ تَفْكيرًا عَميقًا فيما قالَهُ وَلَدُها . . ولَعَلَّها راحَتْ تَسْتَعْرِضُ ذِكْرَياتِها عَنِ ابْنِ أخيها مُحَمَّدٍ ﷺ ، حينَ كانَتْ هِيَ وعَمّاتُهُ الأُخْرَياتُ يُحاوِلْنَ فيهِ أنْ يَذْهَبَ مَعَهُنَّ إلى الاحْتِفالاتِ الَّتي كانَ

العَرَبُ يُقيمونَها لِلأصْنامِ ، ويَخْشَيْنَ عَلَيْهِ أنْ يُصيبَهُ الأذى ، و يَمَسَّهُ الضَّرَرُ ، مِنْ جَرّاءِ إبائِهِ وامْتِناعِهِ .

حَدَّثَتْ « أمُّ أيْمَن » قالَتْ : « كانَتْ ‹‹ بوانة ›› صَنَمًا تُعَظِّمُهُ قُرَيْشٌ ، وتُقَدِّسُهُ تَقْديسًا بالِغًا ، فَتُقَرِّبُ إلَيْهِ القَرابينَ ، وتَذْبَحُ عِنْدَهُ الذَّبائِحَ ، ويَحْلِقُ الرِّجالُ رُءوسَهُمْ عِنْدَهُ ، ويَعْكُفونَ لَدَيْهِ يَوْمًا كامِلاً كُلَّ سَنَةٍ ، كَأنَّهُ عيدٌ لَهُمْ و لَهُ . وكانَ أبو طالِب - عَمُّ الرَّسول - يَحْضُرُهُ مَعَ قَوْمِهِ ، وَكانَ يُكَلِّمُ ابْنَ أخيهِ مُحَمَّدًا لِكَيْ يحْضُرَ مَعَهُمْ ذَلِكَ العيدَ السَّنَويَّ ، فَيَأبَي أشَدَّ الإباءِ ، ويَمْتَنِعُ كُلَّ الامْتِناعِ . حَتّى رَأيْتُ أبا طالِبِ غَضِبَ مِنْ إبائِهِ ونُفورِهِ غَضَبًا شَديدًا ، ورَأيْتُ عَمّاتِهِ قَدْ غَضِبْنَ كَذَلِكَ ، وجَعَلْنَ يَقُلْنَ لَهُ : ‹‹ لماذا لا تَحْضُرُ لِقَوْمِكَ عيدًا ؟ إنَّنا نَخْشَى أنْ تُصيبَكَ الآلِهَةُ بِسُوءٍ وأنْتَ تَنْفِرُ مِنْها هَذا النُّفورَ . ››

« وما زِلْنَ بِهِ حَتّى ذَهَبَ ، فَغابَ عَنّا ما شاءَ اللهُ أنْ يَغيبَ ، ثُمَّ رَجَعَ إلَيْنا و قَدِ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ الرُّعْبِ ، واشْتَدَّ

بِهِ الفَزَعُ . فَقالَتْ لَهُ عَمّاتُهُ : ‹‹ ماذا دَهاكَ ؟ ››

« فَقالَ : ‹‹ أخْشى أنْ يَكونَ قَدْ أصابَني مِنَ الشَّيْطانِ مَسٌّ . ››

« فَقالَتْ لَهُ عَمَّتُهُ ‹‹ أرْوَى ›› : ‹‹ ما كانَ اللهُ لِيَبْتَلِيَكَ بِالشَّيْطانِ ، وفيكَ مِنَ خِصالِ الخَيْرِ ما فيكَ . . ما الَّذي رَأيْتَ ؟››

« قالَ : ‹‹ يا عَمَّةُ ، إنَّني كُلَّما دَنَوْتُ مِنَ الصَّنَمِ تَمَثَّلَ لي رَجُلٌ أبيَضُ طَويلٌ يَصيحُ بي : وراءَكَ ، يا مُحَمَّدُ ، لا تَمَسَّهُ . ››»

قالَتْ أمُّ أيْمَن : « فَما حَضَرَ لَهُمْ عيدًا حَتّى آتاهُ اللهُ النُّبُوَّةَ . »

طالَ صَمْتُها ، واسْتَغْرَقَها التَّفْكيرُ ، وابْنُها قائِمٌ أمامَها يَنْظُرُ ما يَبْدو عَلى وَجْهِها مِنْ إشْراقٍ باسِم حينًا ، ومِنْ قَتامَةٍ وعُبوسٍ حينًا آخَرَ ، وكَأنَّ نَفْسَها تَتَقَلَّبُ بَيْنَ الإقْدام والإحْجامِ ، ويَتَوارَدُ عَلَيْها الإقْبالُ والإدْبارُ . . حينَئِذٍ

قَطَعَ حَبْلَ الصَّمْتِ بِقَوْلِهِ : « إنّي أَسْأَلُكِ ، يا أمّاهُ ، أنْ تَذْهَبي إلَيْهِ ، وتُسْلِمي وتُصَدِّقي . »

قالَتْ - وكَأنَّها عادَتْ مِنْ سَفَرٍ طويلٍ : « سَأَنْظُرُ ما يَصْنَعُ أخَواتي ، ثُمَّ أكونُ إحْداهُنَّ . »

قالَ طُلَيْبٌ : « ولِماذا لا تَكوني القُدْوَةَ لَهُنَّ ، يا أمّاهُ ، وقَدْ مَنَحَكِ اللهُ عَقْلاً راجِحًا ، وبَصَرًا ثاقِبًا ، وعاطِفَةً جَيّاشَةً . . لَقَدْ كُنْتِ تَعْطِفينَ عَلى رَسولِ اللهِ ﷺ وهُوَ طِفْلٌ صَغيرٌ ، وتَحْدَبينَ عَلَيْهِ بَعْدَ فَقْدِ أبَوَيْهِ ، ولَمْ تُجَرِّبي عَلَيْهِ كَذِبًا ولا مَيْنًا ، ولَمْ تَعْرِفي - كَسائِرِ قُرَيْشٍ - غَيْرَ الصِّدْقِ والأمانَةِ . . هَلُمّي ، يا أمّاهُ ، فَلْتَكوني لابْنِ أخيكِ سَنَدًا وعَوْنًا ، ولْتُسْلِمي كَما أسْلَمَ أخوكِ حَمْزَةُ . »

قالَتْ : « وماذا تُريدُني أنْ أقولَ ؟ »

لَمْ يَمْلِكْ « طُلَيْبٌ » نَفْسَهُ مِنَ الفَرْحَةِ ، وقالَ لَها :

« قولي أشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلا اللهَ وأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسولُهُ . »

وشَرَحَ اللهُ صَدْرَ « أرْوَى » لِلإسْلامِ ، ونَطَقَتْ بِالشَّهادَتَيْنِ ، وازْدادَ وَجْهُها إشْراقًا ونورًا .

أسْلَمَتْ « أرْوَى » بَعْدَ أَنْ أسْلَمَ ابْنُها « طُلَيْبٌ » ، وحَسُنَ إسْلامُهُما ، وبَذَلَ ابْنُها في سَبيلِ اللهِ ورَسولِهِ نَفْسَهُ ومالَهُ ، حَتّى إنَّهُ ضَرَبَ « أبا جَهْل » ضَرْبَةً شَديدَةً مُنْكَرَةً ، شَجَّتْ رَأسَهُ شَجَّةً بالِغَةً ، حينَ عَرَضَ وجَماعَةٌ مَعَهُ لِلرَّسولِ الكَريمِ بِسوءٍ . فَما كانَ مِنْهُمْ إلا أَنْ أخَذوهُ و أَوْثَقوهُ ، وهَمّوا أَنْ يُؤْذوهُ إيذاءً مُنْكَرًا ، فَلَمّا عَرَفَ خالُهُ أبو لَهَب بِأمْرِهِ قامَ دونَهُ ، واسْتَنْقَذَهُ مِنْ بَراثِنِهِمْ .

وذَهَبَ جَماعَةٌ إلى أُمِّهِ « أرْوَى » و قالوا لَها : « أ رَأيْتِ ابْنَكِ طُلَيْبًا قَدْ جَعَلَ نَفْسَهُ غَرَضًا دونَ مُحَمَّدٍ ؟ »

فَقالَتْ لَهُمْ : « خَيْرُ أيّامِهِ و أَفْضَلُها يَوْمَ يَذُبُّ (يُدافِعُ) عَنِ ابْنِ خالِهِ ، الَّذي جاءَ بِالحَقِّ مِنْ عِنْدِ اللهِ . »

فَقالوا لَها : « أ وَقَدِ اتَّبَعْتِ مُحَمَّدًا ؟ »

قالَتْ : « نَعَمْ . »

فَخَرَجَ بَعْضُهُمْ مُسْرِعًا إلى أخيها أبي لَهَب يُنْبئونَهُ بخَبَرِها ، ويَعيبونَ عَلَيْهِ أنَّهُ حَمَى ابْنَها ، وهُوَ وأُمُّهُ عَلى غَيْرِ دينِ الآباءِ والأَجْدادِ . فأقْبَلَ أبو لَهَبٍ إلَيْها ، ودَخَلَ عَلَيْها ، وقالَ لَها :

« عَجَبًا لَكِ ، اتَّبَعْتِ مُحَمَّدًا ، وتَرَكْتِ دينَ أبيكِ عَبْدِ المطَّلِبِ ! »

فَرَدَّتْ عَلَيْهِ رَدًّا عَنيفًا ، وقالَتْ لَهُ : « قَدْ كانَ ذَلِكَ ، قُمْ دونَ ابْنِ أخيكَ ، وعَضِّدْهُ وشُدَّ أزْرَهُ . . فَإنْ يَظْهَرْ أمْرُهُ فَأنْتَ بِالخِيارِ في أَنْ تَدْخُلَ مَعَهُ في دينِهِ ، أوْ تَظَلَّ عَلى دينِكَ ، وإنْ تُصِبْهُ العَرَبُ كُنْتَ قَدْ أعْذَرْتَ في ابْنِ أخيكَ ، وما يَلومُكَ أحَدٌ ! »

ولَمْ يُطِقْ أبو لَهَب أنْ يَسْمَعَ مِنْها بَعْدَ ذَلِكَ شَيْئًا ، فَوَلَّى مُدْبِرًا ، وهُوَ يُغَمْغِمُ بِكَلامٍ غَيْرِ مُبينٍ . .

وهاجَرَتْ « أرْوَى » إلى الْمَدينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، وأَقامَتْ فيها ما شاءَ اللهُ أَنْ تُقيمَ في كَنَفِ ابْنِ أخيها ، تَنْعَمُ بِقُرْبِهِ ،

وتَأنَسُ بِحُبِّهِ ، حَتّى انْتَقَلَ ﷺ إلى بارِئِهِ ، فَرَثَتْهُ رِثاءً كانَ آيَةً في صِدْقِ العاطِفَةِ ، وعُمْقِ الحُزْنِ ، وشِدَّةِ الوَجْدِ !

وأفْسَحَ اللهُ لَها في العُمْرِ ، وأَنْسَأَ في أجَلِها ، حَتّى كانَتْ خِلافَةُ عُمَرَ رضي الله عنه ، حَيْثُ فاضَتْ روحُها إلى بارِئِها ، ودُفِنَتْ بِالبَقيعِ بِما يَليقُ بِها مِنَ الإجْلالِ والتَّكْريمِ .

المحتويات

الصفحة	
٤–١٤	أُمُّ الْمُؤْمِنينَ : سَوْدَة بنْتُ زَمْعَة
١٥–٢٢	أُمّي بَعْدَ أُمّي : فاطِمَةُ بِنْتُ أَسَدٍ
٢٣–٣٨	بائعُ الجَمَلِ : جابِر بْنُ عَبْدِ الله
٣٩–٤٧	زَوْجَةُ الشُّهَداءِ : عاتِكَةُ بِنْتُ زَيْدٍ
٤٨–٦٥	مُرَوِّعُ الفُرْسِ : الْمُثَنّى بْنُ حارِثَةَ الشَّيْبانيّ
٦٦–٧٥	عاشِقَةُ البَحْرِ : أُمُّ حَرام
٧٦–٨٤	فاتِحُ إفريقية : عُقْبَة بنُ نافع
٨٥–٩٥	أَرْوى بِنْتُ عَبدِ المطَّلِب

رياض الإيمان شذا فواح من حياة الرسول ﷺ وصحابته ، يضوع في الآفاق ، فيغمر القلوب بعطره ، ويحيي النفوس بصدقه ؛ فتجد فيه الأسوة التي تفتقدها ، والقدوة التي تنشدها ؛ فقد كانت حياتهم التطبيق العملي لما أنزله الله على رسوله .

يُصوِّر شخصيات لها باعٌ طويلٌ في جهاد أعداء الإسلام ، وتحرير النّاس من القهْر والاستعْباد ، وتقرير الحريّة الدينيّة ، وشيوع المحبّة والألفة بين البشر .

نفحات من سيرة الرسول وصحبه

١ـ المولد والنشأة
٢ـ الرسول في المدينة
٣ـ الفتح و الوفاة
٤ـ حاضنة الإسلام
٥ـ سابق الحبشة
٦ـ صديق القرآن
٧ـ الشهيد الحي
٨ـ الباحث عن الحق
٩ـ أم حبيبة
١٠ـ الراكب المهاجر
١١ـ صاحب الخدعة
١٢ـ الشهيد الطائر
١٣ـ أمين الأمة
١٤ـ فاتح مصر
١٥ـ حواري الرسول
١٦ـ الصديق والفاروق
١٧ـ سيف الله المسلول
١٨ـ ساقي الحرمين
١٩ـ ذو النورين

Bibliotheca Alexandrina
0311589

يطلب من : شركة أبو الهول للنشر

٣ شارع شواربي ، القاهرة ت : ٣٩٢٥٦٠٨ : ٣٩٢٤٦١٦

١٢٧ طريق الحرية (فؤاد سابقا) - الشلالات ، الإسكندرية ت : ٥٩٢٤٨٣٩